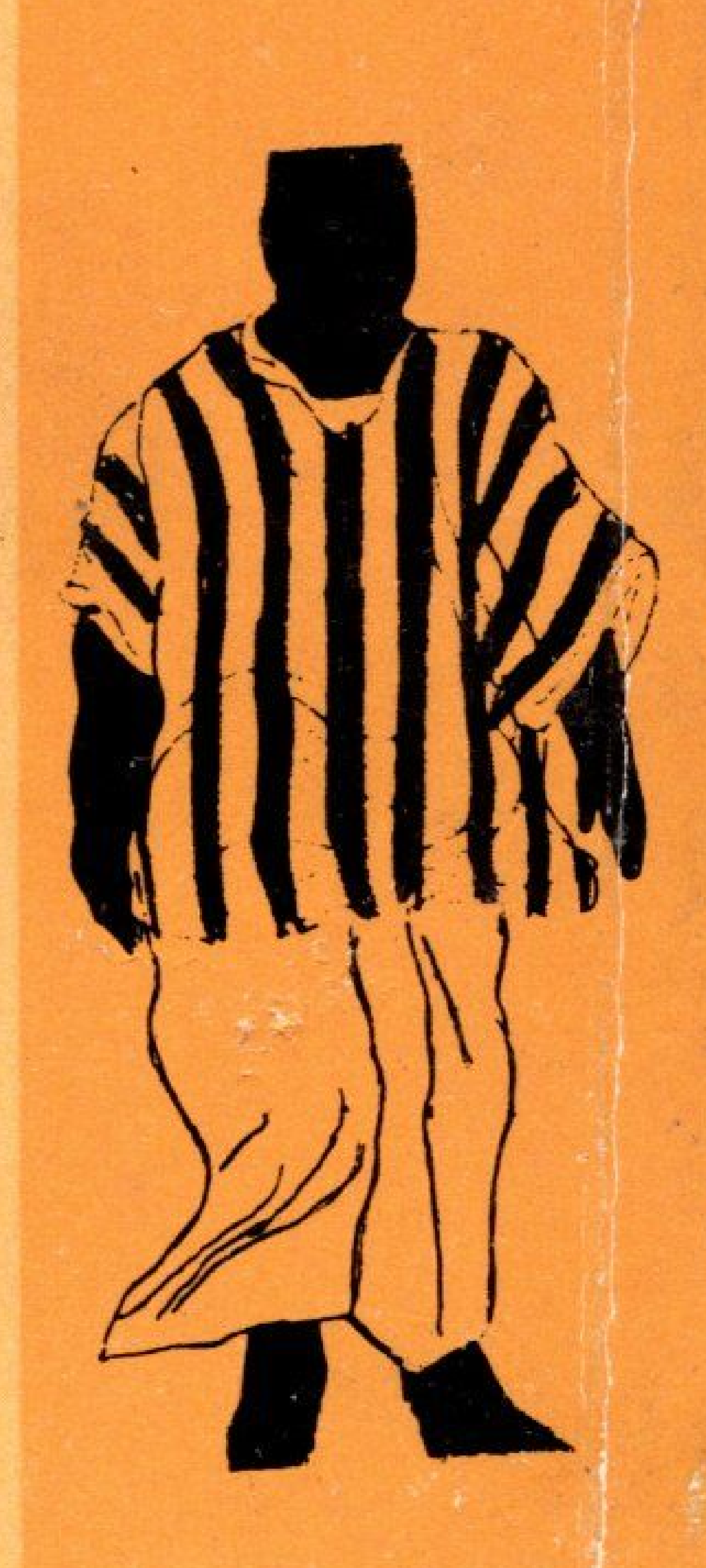
روايات اسلامية معاصرة

عمالقة الشمال

نجيب الكيلاني



دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
الطبعة التاسعة : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

© دار النفائس
بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو

شخصيات الرواية

١ ـ عثمان أمينو
٢ ـ نــور
٣ ـ جاماكا ـ ممرضة
٤ ـ الشيخ عبد الله ـ أحد مشايخ الطريقة القادرية
٥ ـ عبد الرحيم ـ رفيق عثمان في رحلاته الى لاجوس والايبو ٠٠ وفي الحرب
٦ ـ الأب توم ـ مبشر انجليزي يعيش في احدى قرى الايبو٠٠٠
٧ ـ مدام علية ـ صاحبة فندق في الحي العربي في لاجوس
٨ ـ شخصيات ثانوية :

أ ـ قائد السجن
ب ـ زعماء بعض القرى
ج ـ ضباط
د ـ عسكـر
هـ ـ مواطنون ـ تجار ـ خدم ٠٠٠٠٠ الخ
و ـ هانيمان « طبيب مستشفى تبشيري »

٩ ـ قــادة :

أ ـ أحمدو بيللو
ب ـ ايرونسـي
ج ـ أوجركـو
هـ ـ تشوكومـا

١٠ ـ مكان الرواية ـ دولة نيجيريا الاتحادية
١١ ـ زمن الرواية ـ الفترة من عام ١٩٦٥ م حتى ١٩٧٠ م

بسم اللہ الرحمٰن الرحیم

اسمي « عثمان أمينو » ، انحدرت من قبائل ، « الفولاني » في شمال نيجيريا ، يقال أن قبائلنا قد أتت مهاجرة من صعيد مصر في قديم الزمان ، وقد كانت لنا حروب وغزوات وممالـك في أجـزاء كثيرة من أفريقيا ٠ وفي نهاية القرن الثامن عشر ظهر لنـا زعيم مشهور في التاريخ اسمه « عثمان دان فوديو » ، استطاع أن يوحد قبائلنا ، ويجعل لها جيشا جبارا تخفق فوقه ألوية الاسلام ٠٠ وهكذا حكمنا امارات كثيرة منها سوكوتو وكانو وبورنو ٠٠ قبر « عثمان دان فوديو » ما زال حتى الآن في مدينة سوكوتـو ٠٠٠ لعـل ابي سماني باسم عثمان تيمنا بهذا القائد العالم المسلم العظيم ٠٠٠

والمدن عندنا في شمال نيجيريا تنقسم الى قسمين ، القسم ، القديم وفيه تسيطـر التقـاليد الاسلامية ، والآداب المـرعيـة ، ويلتزم الناس رجالا ونساء بأخلاقيات لا تسمح بالانحراف والتحلل، أما القسم الآخر للمدينة ، فهو الاحياء الجديدة ، ونطلق عليها بلغتنا « سابون غرى » أي المدينة الجديدة ، وفيها يقيم الاجانب ، وتنتشر الملاهي ، وتتوارى في شوارعها ـ والعياذ بالله ـ بيوت الدعـارة والعبث وحانات الشراب ٠٠ فالمدينة كما يقول أحد الفسقة قسمة بين الله والشيطان ٠٠

والبيت الذي أسكن فيه في الحي القديم على الطراز العربي المعروف ، وهو عبارة عن ساحة واسعة تتوسط البيت ، تحيط بها الحجرات ٠٠ النساء محجبات ٠٠ أتقن اللغة العربية ٠٠ لغة الدين فنحن نؤمن بقداسة اللغة العربية ، ونعتقد أنها جزء لا يتجزأ من الاسلام ، وأعرف أيضا لغة « الهوسا » وهي لغة التجارة والتعامل ، وأستطيع أن أتحدث الانجليزية بطلاقة ، لأن هذا ضرورة لا بد منها في ظل الاستعمار الانجليزي ونظمه ، كما أعرف التكلم بلغة «الايبو» وهي لغة قبائل الشرق ، وأعرف لغة « اليوروبا » قبائل الغرب ٠٠ كان لا بد من ذلك اذ أني ابن تاجر كبير ، كثير الاسفار ، عشت في رحاب الصوفية وخاصة الطريقة « القادرية » ٠٠ وفي مدينة «كانو» « وسوكوتو » نشاط ثقافي ديني مشهور ٠٠ أنا ـ كما يقولون ـ أحد الدعاة الى الله ٠٠ والطريق الى الله محفوف بالأشواك والاخطار في أيامنا تلك ٠٠ كل ما يجري على أرضنا يجعل الامر مهمة صعبة ٠٠ لم اتزوج بعد ٠٠

لماذا ؟؟

قد يظن البعض أن عدم زواجي حتى الآن سببه انني أريد أن اتفرغ للعبادة والدعوة ٠٠ لا ٠٠ دعني أعترف ٠٠ ان الدماء الحارة في عروقي تلهب جسدي ، والزواج نصف الدين ٠٠

الزواج نداء الفطرة في أعماقي ٠٠ عدم زواجي له قصة غريبة قد تتعارض مع كوني رجل دين ٠٠٠ لكنني اكره الزيف والخداع ٠٠ سأقول الحقيقة ٠٠

دهشت عند سماعي لكلماته وقلت :

جاءني صديق ذات يوم وقال : « تعال لنمرح في الاحياء الجديدة في المدينة » ٠

ـ « حاشا لله ٠٠ أأخوض في تلك المستنقعات الآسنة ؟ ٠٠ »

قهقه ساخرا :

ـ « عثمان أمينو ٠٠ من لايعرف الشيطان لا يعرف الله ٠٠ »

ـ « كيف ؟؟ »

ـ « خبرني كيف تقاوم الامراض دون أن تخالط المرضى وتعرف ما يشكون من آلام ؟؟ »

كنت أعرف أن التجول في « سابون غرى » مدعاة للشبهة وسوء السمعة ولقد علمني أبي أن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وأن الاقتراب من بيت موبوء قد يلحق بي عدوى المرض ، ويوقعني في متاهات الشرور والآثام ، لكن دافعا داخليا يحرضني على الذهاب ، وصوت خافت في وجداني يصرخ بي :

« اذهب ·· تعلم ·· يجب أن تعرف الحياة بكل جوانبها · »

ولاحظ صديقي « نور » ما أعانيه من حيرة وتمزق فهتف صديقي « نور »

ـ « لا قيمة لعفتك ما لم تكن صامدا في وجه الاغراء ·· انك لم تر الاثم ، ومن ثم فأنت تفتقد لذة الصراع ·· »

همست :

ـ « أنا أعرفك ·· »

هز كتفيه في استهتار وقال :

ـ « أنا أشرب ·· وأعاشر النساء ·· وأقضي أوقاتا ممتعة في السينما ·· الجميع يعرفون ذلك ·· »

قلت وأنا أفر :

ـ « وأنا لا أتبع شيطانا ·· »

ضحك نور في وداعة ، وامسك بذراعي عاتبا والابتسامة تضيء وجهه الاسمر :

ـ « قد تتحقق هدايتي على يديك ·· »

نظرت الى وجهه الاسمر الحزين ، وعينيه الشاردتين ، وسكت، بينما استطرد هو قائلا :

ـ « أتخاف ؟؟ »
ووجدتني أقول في ثقة لا حد لها :
ـ « سآتي معك ٠٠ »
القلب الشجاع لا يرهب مواجهة الواقع ، والايمان القوي لا يأنف من مخالطة المجذومين والمعذبين والمنحرفين ، الهروب رذيلة ، ولا جدوى من الاصلاح ان لم أواجه الواقع ،كانت رابعة العدوية شهيدة العشق الالهي تدق آلات الطـرب ، وتجالـس السكـارى والسمار والندمان ، وتغني وترقص ، ومـن قلب النـار المجنونة الحارقة خرجت ٠٠ كأطهر ما تكون الانثى ٠٠٠ وأحبت الله ٠٠ وعاشت لمجد الايمان والحقيقة ٠٠ وكانت امرأة ٠٠ وانتصرت علـى كل وساوس النفس ، وبريق الذهب ، ودنيا المتعة والنعيم والمرح٠٠ اختارت لقلبها أفراحا من نوع جديد ٠٠
ـ « سآتي معك بكل تأكيد ٠٠ »
الطريق الى الاحياء الجديـدة ملىء بالاكـواخ والقاذورات ، وبعض الابل قادمة من الجنوب في تراخ وكسل بعد أن طال بها الطريق ، وقطعان الاغنام يدفعها الرعاة الفقراء الى الحظائر فـي أطراف الحي القديم ، ورائحة الجلد المدبوغ تزكم الانوف ، وخليط من أصوات الحيوانات يتردد في الانحاء ، وما أن عبرنا المنفذ الى الاحياء الجديدة حتى تغير كل شىء ٠٠ الشوارع نظيفة مرصوفة ، العربات الانيقة ، والسيارات الجميلة تدلف في هدوء ، والمصابيح الكهربائية تضىء الطريق ، والمباني الفخمة ذات الرونق والبهاء تشمخ بهاماتها صوب السماء في كبرياء وعزة ، والسـائرون في الطريق العام أغلبهم يرتـدي الزي الافرنجي المميز، وقليـل منهـم يرتدي الدامر ـ ذلك الثوب المزركش الذي يشبه الجلبـاب ـ وعلى الرؤوس الطواقي ، عيب كبير أن يسير المواطن النيجيري في

الشمال دون طاقية ·· بعض النسوة الافرنجيات يمضين في الطريق كاشفات عن نحورهن وأذرعهن ·· ويحملقن بنظراتهن دون حياء ·· وبعض الافريقيات يقلدنهن ··« أستغفر الله» ·· وأغمضت عيني خجلا ·· لم أعد أرى الا مواطىء قدمي ، ولكزني صديقي « نور » قائـــلا :

ـ « اذا لم ترفع نظرك فقد تصطدم باحداهن وتمس يـــدك لحمها ·· »

وضحك ، بينما شعرت أنـا بقشعريرة تسـري في بدني ، وتساءلت بيني وبين نفسي قائلا :

كيف نقاوم هذا الفساد كله ؟؟ » وفي المدينـة القديمـة لا يدخن الناس السجائر ،ولا يشربون الخمر، وهنا أرى الناس ينفثون الدخان في تبجح ·· لا شك أن هؤلاء الناس لا يعرفون شيئا عن الله ··ولا يؤمنون بالآخرة ·· ولا يرهبون يوم الحساب ···

وعلى الرغم من أننا في عز الصيف ، والجو حار بعض الشيء الا ان السماء كانت تمطر مطرا خفيفا ·· وقال نور :

ـ « لشد ما احب المطر ·· »

قلت وأنا أحوقل وأبسمل :

ـ « السماء تبكي خطايا التعساء ·· »

قهقه نور وقال :

ـ « السماء لا شأن لها بالبشر ·· لا تفرح ولا تحزن ·· نحن الذين نتعرض لموجات الحزن ، أو هزات الفرح ·· »

ـ « كل واحد منا يرى ما لا يراه الآخر ·· »

ـ « كلانا يرى المطر ·· »

ـ « لكن تفسيرنا يختلف يا نور ·· »

ـ « التفسير هو منطقة الخلاف دائما ·· »

وفي المدينة الجديدة عشرات من الكنائس ، وليس فيها مسجد واحد ، الاحراس تدق ، والقباب ذات الصلبان تضيء ، برغم ضآلة عدد المسيحيين ·· والمستشفيات كلها أقامها المبشرون ·· انه وضع غريب ، المستشفيات عمل رائع ·· لكن للاسف ·· المسلمون يقفون في آخر الصف ، ويعاملون أسوأ معاملة ، أما الوثنيون والمسيحيون فيقابلون بكل احترام وترحيب ، لماذا ؟؟ أهذا ما أمر به الدين ، أو تدعو اليه المبادىء الانسانية ؟؟ لهذا ولاسباب كثيرة أكره التبشير والمبشرين من رجال الكنيسة ··

همس نور :

ـ « فيم تفكر ؟؟ »

ـ « في الدنيا ·· »

ـ « ألا تفكر في قضاء ساعتين في السينما ؟ »

قلت مستنكرا :

ـ « مستحيل ·· »

ـ « لماذا ؟؟ »

ـ « دخلتها مرة ·· وخرجت منها حيوانا ·· »

ضحك نور حتى كاد يستلقي على قفاه وقال :

ـ « انها نبع لذيذ للمعرفة ·· »

ـ « أتسمي هذه الإثارة والمفاسد معرفة ؟؟ »

ـ « فما هي المعرفة اذن يا معلم عثمان ؟؟ »

ـ « هي ما يصلح النفس ويقومها ·· »

ـ « هذا جانب واحد ·· ومن لا يعرف الشر يقع فيه ·· »

كانت كلمات نور على جانب كبير من الصواب ، لكن خوفا غريزياً يجرني دائما الى وراء ، يكبح انطلاقي صوب مغامرات

المعرفة ، هناك أنواع من المعرفة أخاف منها ٠٠ بل أكرهها ٠٠ وقال نــــور :

ــ « ان في السينما الليلة قصة تاريخيــة ممتعــة ٠٠ دارت أحداثها في انجلترا منذ مئات السنين ٠٠ »

ووجدتني أقول :

ــ « حسنا فلندخل ٠٠ »

كانت القاعة مظلمة تماما ، ولا يضيء في جنباتها الا الشاشة ، موسيقى ٠٠ وأشباح تتحرك ٠٠ نساء جميلات يبتسمن ورجال ذوو أناقة وشعور مستعارة ، وسيوف معلقة فــي الخصور ، ومائدة مستديرة ، وزجاجات خمر ٠٠ وأرشدنا أحد العاملين في السينما الى أماكننا ، لم أستطع أن أرى أحدا من الرواد الا بعد فترة ٠٠ لا شك أن الصدفة وحدها هي التي جعلتها تجلس الى جواري ٠٠ لم أرها الا في الاستراحة بين الفيلمين ٠٠ كانت سمراء فاتنة ، ذات عيون مكحولة ٠٠ الحقيقة أنني ارتجفت عندما رأيتها ٠٠ وكم كانت دهشتي عندما رأيت صديقي نور يجاذبها أطراف الحديث

ــ « هل تعرفها ؟؟ »

همست لنور الذي قال :

ــ « انها ممرضة بمستشفى قريب ٠٠ كثيرا ما استقبلتني وأنا سكران ٠٠ أنا زبون مستديم ٠٠ لكني أقسم لك أنني تركت الخمر منذ شهور ٠٠ »

أصابني ارتباك شديد ، وعزمت أن أترك مكاني ، وطلبـت من نور أن نتبادل المقاعد

ــ « لماذا ؟؟ ان تصرفك غريب يا عثمان ٠٠ »

ــ « هذه رغبتي ٠٠ »

وابتسمت ، وعاد الظـلام وبدأت السينما عرضهـا ، لكن

ابتسامتها ظلت عالقة بخيالي ، حاولت أن أستغفر الله ، وأستعيذ من الشيطان الرجيم ، وألعن الصدفة التي قذفت بي الى هذا المكان ، وألعن نور ، لكن هذا كله لم يمح صورتها من خيالي ، ولم أعد أرى على الشاشة سواها ..

وتسللت في هدوء .. تركت القاعة دون أن يشعر بي نور ، وانطلقت الى الشارع الواسع الذي بللته قطرات المطر ، وجعلته لامعا جذابا ، كنت أجري وألهث ، وقصدت أقرب مسجد في المدينة القديمة . و أخذت أصلي .. وأصلي .. وأقرأ القرآن ، وأذرف الدموع ..

قد تسألني لماذا لم اتزوج ؟؟

لا شك أن « جاماكا » ـ وهذا اسم الممرضة ـ هي السبب ..

لاني لو التقيت بفتاة مثلها منذ سنين لتزوجتها على الفور ..

لكني لم أكن قد وجدت الفتاة التي تجعلني أفكر في الزواج قبلها ..

٢

كان فراري ـ كما علمت ـ مادة مسلية « لجاماكا » ونور » وأخذا يتبادلان التعليقات عني ، ومن خلال الحديث والتعليقات عرفت عني كل شيء ، وقال نور أنه برغم هروبي الا انها أبدت كثيرا من الاهتمام بي ، وأكثرت من الاسئلة عني ، وبدا لي الامر تافها لا قيمة له ، اذ ان اهتمامهـا لن يعدو جانب الطرافـة والغرابـة ٠٠كنت أعيش في بيتي وحيدا بعد أن رحل أبي الى الدار الآخرة ، وبعد أن تبعته أمي بعد شهور ٠٠ مات أبي سعيدا كأقصى ما تكون السعادة، نظر الي عند الموت بعينين دامعتين تشعان ايمانا نبيلا وغمغم :

« ها أنت ترى يا ولدي أن كل شيء الى زوال ، وفي يوم من الايام لا بد أن نودع الدنيا ٠٠ والمال ٠٠ والاحباب ٠٠ ونذهب الى الحبيب الاعظم لنعيش في رحابه ٠٠ أيمكن أن يضحي عاقل بأخراه من أجل دنياه الفانية ٠ ٠فلتملأ قلبك باليقين ٠٠ وعـش دائمـا لله ٠٠ »

ونام أبي هادئا ٠٠ شاحب الوجه ٠٠ ولحيته البيضاء كانت تقطر صفاء ٠٠

احتبست أنفاسه اللاهثة فجأة ٠٠ ثم مات ٠٠٠
وكانت كلمات أبي الصادقة تتغلغل آنذاك الى أعماق نفسي ،

وترعش قلبي ، كانت بسيطة قوية مؤثرة ‥ ويومها صغرت الدنيا بكل ضخامتها في عيني ‥ ان كل شيء الى زوال ‥ فلا معنى لان يسقط الانسان المؤمن صريع البريق والاغراء ‥ والغني من هانت في عينيه الدنيا ، ولم تستعبده أموالها وجاهها ‥ وبعدها تكررت رحلاتي الى الله ‥ كنت أخرج في خضم القبائل الوثنية داعيا الى الايمان ‥ أسلم على يدي خلق كثير ‥ كانت سعادتي برجل يؤمن أعظم من كسب آلاف الجنيهات ، والحصول على كومة من الذهب‥

لكن رؤيتي « لجاماكا » أثار في نفسي خواطر غريبة ‥ العيون المكحولة لم تفارقني حتى في منامي ، رأيتها تخطر في رداء أبيض ‥ ووجهها الاسمر الفاتن يذكرني بأسراب الحمام الهائمة في سماء الحرم ‥ يذكرني بالنسوة المؤمنات وهن يطفن حول الكعبة ‥ وأنا زرت بيت الله الحرام في حياتي مرتين ‥ كان طيف « جاماكا » يطاردني في الحاح ‥ وكنت أستريح لخيالها برغم خوفي الشديد ، وزاد ارتباكي وخوفي ، فأسرعت الى شيخي الكبير « عبد الله » قلت له :

ــ « سيدي وإمامي ‥ في القلب حاجات وفيك فطانة ‥ »

ابتسم مسبل الجفنين وهمس :

ــ « أى عثمان ‥ أشواق الانسان لا نهاية لها ‥ »

ــ « أشواق منحرفة يا مولاي ‥ »

ــ « ما دمت قد عرفتها فلا تخشها ‥ أعطيت لها الصادق من الصفات ، ففيم الخوف والشتات ؟؟ »

قلت في قوة :

ــ « أجل ‥ أشواق ‥ لكن لها صفة الانحراف ‥ »

هز الشيخ عبد الله رأسه وقال :

ــ « اخلع نعليك ‥ وانزع طاقيتك ‥ وانظر الى السماء

واهتف سبحان الله ‥ والحمد لله ، ولا اله الا الله ‥ ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ‥ »

وكانت كلمات شيخي أمرا لا يرد ‥ خرجت قبيل الفجر حافيا عاري الرأس ، وأضرع الى الله ‥ شعرت ببرد الراحة ينسكب بين ضلوعي ‥ الانتصار على نوازع النفس معركة مقدسة …

وعدت الى بيتي بعد الصلاة ‥ ثم نمت نوما هادئا ، ولم أستيقظ الا على دقات الباب ‥ لقد جاء نور ، كان يعاني من مشكلة البطالة فقد طرده صاحب المحل الكبير في المدينة الجديدة ‥ لكنه لم يكن تعسا ، ومع ذلك فان القلق كان باديا على وجهه ، لم يعطني الفرصة لاعلق على وضعه ، بل سبقني بالقول :

ـ « ليست هذه المرة الاولى ‥ لقد فصلت من عملي الحكومي مرتين وطردت من مصانع الزيوت في الشرق ‥ ولم أستطع أن أقضي أكثر من عام في المناجم ‥ انني لا أطيق البقاء في مكان واحد فترة طويلة ‥ ومع ذلك فلن أموت جوعا ‥ »

وفكرت في أمر نور ، أنا أعرف جيدا نواحي النقص فيه ، لكني آمل أن تنصلح حاله ، من يدري ؟؟ ألم يمتنع عن شرب الخمر ، ووجدتني أقول له :

ـ « أنا راحل الى الجنوب ‥ ولدى قطيع من الاغنام تعاقدت على بيعه ‥ في الامكان أن تصحبني في هذه الرحلة ، وسوف أدفع لك أجرك ‥ »

ضحك نور ، وبدا سعيدا منشرحا ، وتمتم :

ـ « أريد جوادا ‥ ومسدسا ‥ وملابس رعاة البقر التي أراها في الافلام الامريكية ‥ »

وجزعت عند سماعي لكلمة « الافلام » ، لقد أعادت الي صورة العينين المكحولتين ، والوجه الاسمر الفاتن ‥ « جاماكا » ‥ وارتعدت فرائصي ‥

ـ « بالله يا نور ‥ لا تعد تذكر هذا الامر ‥ »

قال في استهتار :

ـ « الملعونة لم تكف عن السؤال عنك •• »

قلت في انبهار :

ـ « لماذا ؟؟ »

ـ « تقول انها ملت الذين يترامون تحت أقدامها •• »

ـ « وأنـا ؟؟ »

ـ « أنت الوحيد الذي تركها خلف ظهره وانصرف •• »

ـ « ما معنى ذلك ؟؟ »

قهقه نور ، ورماني بنظرات مرحة وقال :

ـ « معناه الحب •• »

دارت رأسي ، كانت الحجرة خافتة الضوء ، تراقصت الظلال على الجدران ، الشياطين ترقص ، وتخرج ألسنة من لهب أحمر ، وموسقى أفريقية صاخبة تدق ، وما زال رأسي يدور ، وهي ـ خيل الى أنها ترقص حول نار مجوسية والجواهر المعلقة في جيدها وخصرها تبعث نغما مجنونا وهي ترتطم ، وصرخت :

ـ « مستحيل •• »

قال نور :

ـ « لماذا ؟؟ هل الحب حرام •• »

ـ « أنا أرفض هذا السقوط •• »

ـ أنت لا تملك مشاعرها •• »

ـ « بل أملك أن أدوس طيشها بحذائي •• »

رماني بطرف عينه وقال :

ـ « ربما أمسكت بحذائك وقبلته •• »

كدت أجن ، بدت لـي فلسفته العابثة كقوة رهيبـة تحاصر فكري ، وتسخر من أفكاري ، هتفت :

ـ « أنا لا أتزوج من وثنية •• هذا محرم شرعا •• »

عاد نور الى ابتسامته الماكرة وقال :

ـ « نحن لا نتحدث عن الزواج ·· ثم أنها قد أعتنقت المسيحية على أيدي المبشرين في قبائل الايبو ·· وتلقت على أيديهم دروس التمريض ·· »

طأطأت رأسي وقلت :

ـ « بعد يومين سنرحل الى الجنوب ·· ستستغرق الرحلة حوالي شهرين ·· سنبيع الاغنام ، ونشتري بضائع أخرى ··وفي الطريق سندعو الوثنيين الى الله ···

أنا داعية للاسلام قبل أن أكون تاجرا ·· »

وقال نور :

ـ « رحلة ممتعة لا شك ·· أنا في هذه الدنيا عابر سبيل ، أقطع الطريق قهرا ·· أمضي حيثما أجد لقمة العيش ، لاأسد أذني عن سماع شيء ··· وأهتبل الفرصة ، ولا أحرم نفسي من لذة ·· فقد لا تتوفر لي الا مرة ·· أمضي على الهامش دون ضجيج ·· أرقص الايبو ·· وأغني مع اليوروبا ··

وأراقص المسيحيات ·· وأغوص في مستنقعات المنطقـــة الشرقية ·· وأتوه في ظلام الغابات ·· لا أخاف الموت.

* *

٣

أنا اؤمن بالمعجزات ، ولا أدهش لرؤية العجائب والمفارقات ، فالله قادر على كل شيء ، ونحن لا نعرف عن الكون الا القشور ، جوهر الاشياء غائص فـي أغلفة كثيرة من الظـلام ولا يراهـا الا أصحاب البصائر الاطهار ..

حينما رأيت «جاماكا» تقف ببابي ،دق قلبي من الرعب ،ولمأستطع أن أنطق بكلمة ترحيب واحدة .. الا بعد وقت ليس بالقصير ..

وأنا ينقصني الحزم في بعض الاحيان ، هذه نقطة بارزة ، وأنا واثق أن الذين يعوزهم الحزم يضيعون كثيرا مـن الفرص ، ويجلبون على أنفسهم خسائر كان في الامكان تجنبها ، هل ذلك يعني أنني ضعيف الارادة أم أنه ضرب من الخجل ؟؟

قالت « جاماكا » في براءة :

ـ « ليس من المعقول أن أظل واقفة ببابك »

ـ « لكن ليس في الدار أحد .. »

نظرت الي طويلا نظرة عتاب :

ـ « لكنك فيها .. »

ـ « أعني أنه من غير اللائق أن أستقبل امرأة في بيتي .. »

همست في اصرار :

ـ « سوف أدخل »

صرخت في جنون :

ـ « في الداخل شيطان »

ابتسمت قائلة :

ـ « أترهب الشياطين ؟؟ »

ـ « لا تضيعي الوقت .. »

قالت وهي تدلف في اصرار :

ـ « لست بائعة هوى »

باحة البيت يغمرها الضوء الساطع ، وأشعة الشمس تعري كل شيء ، وعندما رأيتها تنظر صوب الغرفة القريبة ، أسرعت باستحضار مقعدين .

الضوء الباهر يصرع نوازع الشر ، هذا ما أفهمه ، الامر بدا لي لا يصدق ، ماذا جرى ، بالامس ليس هناك سوى لقاء صنعته الصدفة البحته في احدى دور السينما ، كلمات تافهة من صديقي نور ليس وراءها سوى العبث ، مجرد كلمات اعجاب من « جاماكا » ، آلاف الوجوه يلتقي بها الانسان ، ولا تخلف وراءها شيئا نحن نسير في الدنيا كالمخدرين ، لكن مشهدا معينا قد يرسخ في النفس لا يغادرها ..

همست جاماكا :

ـ « شيء ما يشدني اليك »

قلت في شيء من الجفاء :

ـ « ألهذا جئت ؟؟ »

انحنت قليلا وأردفت :

ـ « ألا تعرف ما الذي يحرك الانسان ؟؟ »

ـ « ماذا ؟؟ »

ـ « رغبات مبهمة .. قد نسميها مشاعر .. قد لا نجد لها اسما مناسبا .. المهم أنني أردت أن اراك . »

ـ « ألا يمكن أن يكون ذلك غير ذي أهمية »

هزت كتفيها قائلة :

ـ « ربمــا ·· »

ثم استطردت : « ومع ذلك ، فأنا قد تعودت أن أستجيب لما يعتمل في داخلي ، في غابات الجنوب كنت وأنا صبية أجري عارية ·· لم أكن أجد غريبا يفد الينا الا وأهرول اليه ·· ويوم أن عملت كخادمة لدى بعض الراهبــات شعرت بسعادة قصــوى ·· كانت حياتهم غريبة وأفكارهم أغرب ·· وعاداتهم تدعو الى الدهشة ·· وكنت مزهوة وأنا انطق ببعض كلمات الانجليزية ·· وتعلمت الكثير من عاداتهم ولغتهم واستطعت ببراعة أن أتعلم مهنة التمريض ·· كنت أرحب بأي مكان يبعثون بي اليه ·· تمنيت أن أقطع البلاد شرقا وغربا ·· ووجدت راحة كبرى هنا في الشــمال ·· الجــو جميل ·· والناس نظفاء ·· وليس عندكم ذباب « التسي تسي » ولا الثعابين أو الحيوانات المتوحشة ·· ولا يأكل الانسان لحــم أخيه الانسان ·· »

وسادت فترة صمت لم أعرف خلالها كيف أحادثها ، وأدركت هي ما يسودني من ارتباك وخوف ، وقالت :

ـ « علمت أنك من رجال الله ·· »

ـ لا أملك سوى النصيحة والكلمة الطيبة ·· »

ـ « ورجال الله ـ كما أعلــم ـ لا يغلقون أبوابهم في وجــه أحـــــد ·· »

ـ « أجل ·· غير أن الامر يختلف الآن ·· »

ـ « لماذا ؟؟ »

ـ » يوجد الآن رجل واحد وامرأة واحدة ·· »

ـ « فليكن ·· »

ـ « واذا أجتمعا كان ثالثهما الشيطان »

ضحكت جاماكا ، لشد ما أخاف النظر الى عينيها المكحولتين ،

تصورتها عارية تجري في الغابـــات ، وتقلد أصوات الوحوش ، وتنهش اللحوم الآدمية ، وتخوض في المستنقعات •• وتخيلتهــا تخدم في مقر الراهبات وتلتقط فتات موائد السادة الانجليز ، وتتعلم الكلمات الانجليزية •

ثم تسقط بين ذراعي نذل •• فوقفت وقلت :

ـ « أرى أن نفترق »

نظرت الي بتحد وقالت ببساطة مذهلة :

ـ « أنت في حاجة الى امرأة •• »

ـ « ماذا تعنين ؟؟ »

ـ « أريد أن أكون لك •• »

ـ « ليس هذا وقت العبث والمزاح •• »

ـ « أنا أعبر حقيقة عما يجيش في نفسي •• »

ـ « لكن الامر بالنسبة لي يختلف •• »

هزت رأسها ، وقد شاب وجهها الاسمر حزن مباغت وقالت :

ـ « فهمت •• »

وفي لحظات كانت تتجه صوب البـــاب ، وتغيب وســط السائرين ، وأنا باق في مكاني لا أتحرك ، تنفست الصعداء بعد قليل ، لم اجرؤ على ملاحقتها بنظراتي ، وران على قلبـــي حــزن ثقيل ، لا أدري كنهه ، أعترف أنني لم أكن صادقا مع نفسي ، كنت أطردها وقلبي يحتضن نظراتها ، وأدفعها وأتمنى أن تبقى ، أنـــا مسلم وهي مسيحية ، ومع ذلك فلا أرى مانعا من الزواج ، هناك رواسب ومخاوف مبهمة تتعلق بماضيها الغامض ، ونتف من كلمات نور تلقى ظلالا من الشك ، جرأتهــا أخافتني ، شجاعتهــا جعلتني أتراجع ، وفي نيجيريا الشمال ملايين الفتيات يعشن محجبات في الحفظ والصون ، ويعبدون الله ، ويلتزمون بالفضيلة ، فلماذا لم أفكر في واحدة منهن •• أليس من العجب أن يميل قلبي « لجاماكا »

بالذات ·· هذا امتحان وبلاء من الله ··

هرولت الى شيخي « عبد الله » ·· كان يتوضأ لصلاة الظهر وحوله الاتباع والاشياع ، هؤلاء الدراويش يتسابقون لخدمته ، ويتبركون بماء وضوئه ، وهو في شبه غيبوبة يغمغم بذكر الله ·· قلت بنبرات مرتعشة :

ـ « مولاي ·· »

صاح بأعلى صوته دون أن يفتح عينيه :

ـ « استغفر الله يا عثمان ·· »

ـ « مولاي ·· »

ـ « انتظر حتى نتم الصلاة ·· »

كانت دموعي تهطل بين الركعات والسجدات ، تبلل وجهي ولحيتي السوداء الصغيرة ، وبللت القطرات موضع السجود ، انتهت الصلاة ، وقرأنا الاوراد ، واخذ الدراويش ينصرفون واحدا بعد الآخر وهم يصافحون الشيخ ويقبلون يده

كم كانت دهشتي عندما سمعت الشيخ يقول وهو مغمض العينين :

ـ « اذهب بتجارتك على الفور صوب الجنوب ·· ولا تصطحب « نور » معك ·· »

ـ « مولاي ·· انه فقير مسكين ·· »

ـ « ولتعطه أجره لوجه الله ·· »

ـ « ما جئت لامر كهذا ·· »

ـ « هذا هو الجواب ·· افعل ما تؤمر ·· »

وأخذ يردد « يا مغيث أغثنا واكشف عنا السوء » ، ثم سمعته يزجرني : « قل معي يا عثمان ··· قلها ألف مرة ·· »

وأخذت أردد الضراعة بقلب متعلق بالله ، كنت أشعر أن سحب الخوف والعناء تنقشع رويدا رويدا ، وأن مشاعري ترق وتصفو ، وما أن انتهينا من الورد المذكور ، حتى سمعت شيخي

عبد الله يقول :
ـ « الشيطان لا يكف عن قرع أبواب المؤمنين »
صحت وأنا أشهق باكيا :
ـ « انها امرأة يا مولاي ·· »
ابتسم الشيخ في هدوء ، ومسح على رأسي وظهري وقال :
ـ « يأتي الشيطان في شكل امرأة ·· وقد يظهر في ثوب سلطان على رأسه تاج ·· وقد يخطف بصرك على صورة قطع من الذهب والمجوهرات ·· المال شهوة ·· والسلطة شهوة ، والنساء شهوة ·· هل فهمت ؟؟ »

طأطأت رأسي في استحياء وتمتمت :
ـ « المصيبة أن قلبي خفق لها ·· »
ـ « لن يحاسبك الله الا على ما جنت يداك ·· »
ـ « فتاة متنصرة من الايبو ·· »
عندئذ فتح الشيخ عينيه ، وتنهد ثم قال :

ـ « لم يعلموها من الدين الا أن المسلمين في النار ·· وان الرقص والشراب والاباحية هي المدنية فهي مدنية خراب ·· صنعها فكر سقيم يبغي التدمير ·· الشرع يبيح زواجك منها ·· لكن لا تنس أن مسلمة خير منها ولو أعجبتك ·· »
تلعثمت كثيرا وأنا أقول :

ـ « ألا يجوز أن يهديها الله على يدي ؟ »
ـ « كل شيء جائز ·· الافضل أن تطمئن لهدايتها أولا ·· »
وشرب الشيخ جرعة ماء وقال :
ـ « كفرة اوربا قد زرعوا في أرضنا الفتن ·· المبشرون لا يدعون الى الله من أجل الله ·· أنت تدرك معنى كلامي ·· كـان الاوربيون وراء كل الفتن والدماء التي أريقت ·· »

وشرد الشيخ ، ثم أغمض عينيه وهتف :

« حي •• قيوم •• علام الغيوب •• اذا نزلت يا عثمان في أحراش اليوروبا •• وظلمات الايبو •• فابعث بكلمات الله في كل مكان •• وادع البشر هناك الى عبادة الواحد •• وقل لهم كونوا اخوة •• وحطموا الاصنام الجديدة •• اطلق كلماتك في الصحراء •• في الغابات •• في المناجم •• في المصانع •• ولا تخش الا الله •• وليس من المكتوب هروب ••

ولو اجتمع أهل السماء والارض على أن يضروك بشيء لن يضروك الا بشيء قد كتبه الله لك •• »

* *

البيت صامت ، وأمامي مصباح صغير ، وكتاب عن معالم الطريق أقرأ فيه •• ويدق الباب ويدخل نور •••

ـ « علمت أنها جاءت اليك •• »

نظرت اليه ، ثم قلت :

ـ « لن تسافر معي •• »

أصابته دهشة مباغتة لكلماتي ، بدت على ملامح وجهه، أدركت منها مدى اليأس الذي ملكه ، لكني أخرجت رزمة من الاوراق المالية وقلت :

ـ « هذا أجرك •• »

دفعها بيده في شيء من الغضب وقال :

ـ « يهمني أن أعرف لماذا غيرت رأيك •• »

ـ « دع هذا الامر •• »

ـ « أنا غني عن مالك •• »

ـ « لكنه حقك •• »

وعاد يرمقني في حيرة :

ـ « هل أسأت اليك ؟؟ ان جاماكا مجنونة •• لقد حذرتها أكثر من مرة حتى لا تتعرض لك •• لا ذنب لي ••• »

وانصرف نور حزينا دون أن يأخذ شيئا •• وأنا الآخر شعرت بمرارة قاتلة ••

٤

الحديث عن السياسة قد يكون مملا ، وكثير من النـاس لا يعبأ بها ، غير أن لي وجهة نظر أخرى ، أن الانسان مجموعة من العواطف والافكار ، وفي قلب الانسان تختلط مشاعر الحب والكره، والعنف واللين والفن والسياسة ، والدين والحياة ، بل ان تصوري الذي أؤمن به أن الدين الاسلامي تفسير رائـع للكون والحيـــاة والانسان ، وحل شامل لكل المعضلات التي يعج به الوجود ••• أنا من أنصار حزب « السلاما » أو هيئة مؤتمر الشمال •• رئيس الحزب هو « أحمدو بيللو » •• من منا لا يعرف أحمدو بيللو •• انه أبو نيجيريا الحديثة •• الاب الروحي لجميع المسلمين •• زعيم أكبر حزب •• متواضع •• مؤمن •• وهو من سلالة ملوك « الفولاني » لم يحن رأسه للانجليز قط •• كلنـــا يعرف قصتهمع الاميـرة « ألكسندرا » مندوبة الملكة أليزابيت في عيد الاستقلال النيجيري • لقد رفض الانحناء لهـا •• ورفض أن يمد يـده لليهـود أو يقبل معوناتهم •• حزبنا أكبر حزب في نيجيريا •• ينـــال الاغلبية الساحقة في الانتخابات •• على أكتاف هذا الحزب قامت وحـدة نيجيريا •• رفض أحمدو بيللو أن يكون رئيسا للجمهورية •• اكتفى بأن يكون رئيس وزراء الشمال •• أما نائبه في الحزب فقد أصبح رئيسا للوزراة الاتحادية التي تضم حكومات الشرق والغرب والشمـــال ••

في السماء صفاء غريب •• والجو رائع •• ومع ذلك فأنا

أشعر بمرارة ·· أريد أن أفعل شيئا ·· عدت الى شيخي عبد الله ·· انني بجوار هذا الرجل أشعر براحة عجيبة ·· لكأنما يتدفق نبع اطمئنان مقدس من قلبه فيملأ فؤادي باليقين ·· وما أن وصلت اليه حتى وجدته يستعد لزيارة أحمدو بيللو ·· ولم يزد على أن قـــال :

— « تعال معنا ·· جئت في وقتـك ·· كنت سأبعث في طلبك ·· »

لم تكن الامور في عاصمة الشمال على ما يرام برغم الاستقلال والوحدة الوطنية ، ان الصراع دائما محتدم ·· صراع أفكار ··· لا خوف من صراع الافكار ·· أخطر العوامل المؤثرة في هذا الصراع هي الحركة التبشيرية ·· انهم لا يدعون الى الله حسب طريقتهم فحسب ·· ولكن القساوسة ، ليسوا رجال دين هنا بالمعنى الدقيق، انهم يتزينون بمسوح الرهبان ، ويظهرون صفات التدين ، لكنهم في الحقيقة يؤرثون الاحقاد ، ويبثون الفرقة ، ويمزقون وحـــدة الامة ·· انهم لا يريدون أن يسود الحب والصفاء ·· معنى الوحدة الوطنية أن يفقد المستعمرون القدامى والجدد مصالحهـم ·· ولا أنسى أن معظم الموظفين في الشمال من « الايبو » المسيحيين ·· وكثير من ضباط الجيش ·· مع أن نسبة المسلمين في الشـمال ٩٨ بالمئة ·· وهذا يدعو الى الاطمئنان الجزئي ···

كان مجلس أحمدو بيللو عامرا بالرجال الاخيـار ، كثيرون منهم ينتمون الى الطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية والوهابية ·· وهناك عدد من رجال السياسة ·· كانت الاحاديث تطوف بشتى الموضوعات ·· وعندما جاء ذكر الحالة العامة في البلاد قال أحمدو بيللو :

— « التسامح يقهر الحقد ·· »

رد أحد الجالسين :

ـ « التسامح يا مولانا لا يصل لدرجة جعل « جونسون ايرونسي » قائدا للجيش في الشمال ·· أنا أعرف أنه مسيحي متعصب ، لا يؤمن جانبه ·· وهو من الايبو ·· »

ابتسم أحمدو بيللو وأضاء وجهه نور اليقين وقال :

ـ « لا فرق بين الايبو واليوروبا والهوسا ·· »

ـ « بل هناك أحقاد كامنة ·· »

ـ « يجب أن نتجاهلها من أجل وحدة البلاد ·· »

ـ « في ذلك يكمن خطر رهيب ·· »

هز كتفيه في ثقة وقـال :

ـ « بذور الشر لا تثمر في أرضنا ·· »

ـ « للشر جولات ينتصر فيها ·· »

أغمض أحمدو بيللو عينيه وتمتم بآية من القرآن :

ـ « كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ·· »

تنهد المتحدث في ضيق وقال :

ـ « انهم يعيثون الفساد في الشمال ·· »

ـ « اذا ثبت على أحدهم جرم فسنأخذه بحكم الله ··· »

ـ « ما أكثر الجرائم التى تحاك فى الظلام ·· »

قال أحمدو بيللو :

ـ « الظلام يصرع العصابات التي تعشش فيه ·· »

ـ « بل يسترهم ويحميهم ·· »

وعاد أحمدو بيللو يقول في دهشة :

ـ « لست أدري ماذا يريدون »

رد شيخي « عبد الله » قائلا :

ـ « الطمع ·· »

همست : ـ

ـ « أجـــــل ·· »

وقال شيخي :

ـ « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ·· »

ثم نظر الى أحمدو بيللو قائلا :

ـ « كلما نظرت الى وجهك يا أمير المسلمين أرى ملامح شهيد يقترب من الجنة ·· »

أضاء وجه الامير وقال في سعادة :

ـ « مرحبا ·· مرحبا ·· هذا يوم المنى ·· »

الحقيقة أنني شعرت بضيق بالغ ، فأنا أعرف أن الايدي الاجنبية لن تترك نيجيريا تعيش في سلام ، وفي نيجيريا ثروات هائلة ، وامكانيات ضخمة ، وفيها قوة اسلامية تخيفهم ، انجلترا لها أطماع ·· وأمريكا تتوثب للانقضاض ، وفرنسا تأمل في جزء من الغنيمة ·· واسرائيل تتسلل ·· بل ونجحت وأصبح لها خبراء للزراعة وتجفيف المستنقعات في الغرب ·· ولها شركه انشاءوتعمير ضخمة اسمها « نيوجيرسال » ·· كل ذلك في الشرق والغرب ·· أمـا الشمال فلم يزل مغلقا في وجهها ··

وسمعت شيخي عبد الله :

ـ «« احذروا اليهود ·· انني أراهم هنا ·· »

ضحك أحمدو بيللو وقـــال :

ـ « أين هم ؟؟ لن تطأ أقدامهم أرض الشمـــال ما دمت عـلى

قيد الحياة ·· ولسوف أحاول أن أضيق عليهم الخناق في الجنوب بالتفاهم مع الحكومات المحلية هناك ·· اليهود خطر داهم ·· »

وأردف شيخي : ــ

انهم هنا ·· أراهم في وجوه الكثيرين »

ــ « تعني أنصارهم ؟ »

ــ « أجل يا أحمدو بيللو ·· »

وانتقل الامير الى موضوعات شتى ، أخذ يتحدث عن زيارته الاخيرة الى مكة ، وعن لقائه مع زعماء العالم الاسلامي هناك ، وعن الامر العجيب الذي لفت نظره ، فقد لاحظ أن قضايا العالم الاسلامي يواجهها دائما تكتل من قبل الاعداء ·· المسلمون في العالم لا ينصفهم أحد ، لماذا ؟ وبلاد المسلمين هي حقول الاستنزاف والمؤامرات والتدمير · لماذا ؟ ومذابح الأقليات الاسلامية في أماكن شتى من العالم دون أن يتحرك ضمير أحد من الفلاسفة أو المصلحين ، لماذا ؟؟

ــ « المشكلة ليست مشكلة نيجيريا ·· ولكنها مشكلة الامة الاسلامية كلها ·· لكي تبحثوا عن حل يريح نيجيريا يجب أن تنظروا الى بعيد ·· الى الثمانمائة مليون مسلم ·· القوة الجبارة التي تستطيع أن تغير وجه التاريخ ·· وتعيد الحق الى نصابه ·· فيسود الصفاء العالم ·· وتختنق الثعابين ، وينحدر الظلام ·· »

وعاد شيخي عبد الله يعلق :

ــ « نحن لا نفهم الاسلام كما يجب ·· »

وفجأة وقف أحمدو بيللو قائلا :

ــ « صدقت ·· »

وهب الجميع واقفين ، وعاد أحمدو بيللو يقول :

ــ « اجلسوا ·· »

وأخذ يجفف العرق الذي يتصبب على جبينه الاسمر ولحيته البيضاء واستطرد في انفعال :

ـ « التعليم الصحيح هو المخرج ·· يا الهي ·· ما زلت أذكر ·· عندما كنا نحاول تعليم الاطفال اللغة العربية والقرآن كان المستعمرون يفرضون علينا ضرائب باهظة ·· المسلم لا بد أن يغير اسمه ليدخل المدارس التبشيرية ·· المناصب لمن يتنصرون ·· المدارس خاضعة للنظام التبشيرى ·· أى ظلم وتعصب هذا ؟؟ ولذا قررت انشاء العديد من المدارس والجامعات ·· وسيتعلم الطالب الفيزياء والكيمياء والطب الى جوار الفقه واللغة العربية وحفظ القرآن ·· ولقد أدليت بتصريحات مثل هذه للصحف في مكة المكرمة أثناء الحج ·· أتدرون بماذا علق المعلقون على تصريحاتي؟؟ »

وثبت من مكانى متسائلا :

ـ ماذا قالوا ؟؟ »

نظر الي باسما وقال :

ـ « قالوا أن أحمدو بيللو لن يعيش طويلا ·· »

ـ » لماذا يا مولاي ·· »

هز رأسه في أسى وقال :

ـ « عندما يرى عدوك أنك وضعت يدك على مفتاح الباب المغلق الذي سيوصلك الى بر الامان والحرية والنجاح ·· يفقد رشده ·· يطير صوابه ··· يندفع كمجنون ليقضي عليك ·· لان فرصة انتصاره سوف تضيع الى الابد ·· انه يغامر ·· هل فهمت يا ولدي ؟ »

وساد صمت مقدس ، العيون الوفية المخلصة ترمق الرجل العظيم الجالس على كرسي الحكم ، الرجل الذي لا يرهب العدو لا يخاف الموت ، ولا يهرب من مواجهة الحق ، وقال شيخي « عبد

الله ، قاطعا حبل الصمت المقدس :

ـ « نحن لا شيء بالنسبة لعظمة الله ·· في حروب الردة مات المئات من العلماء وحفظة كتاب الله ·· والطريق الى الله محفوف بالمكاره ··

التحيات لمن حج واعتمر ·· التحيات لمن استقرت في قلبه عقيدة التوحيد ·· والتحيات للشهداء ·· »

وعند العودة الى بيت شيخي همست :
ـ « شيخي ·· قلبي يرتجف من الخوف »

ـ « لا قيمة لذلك »

ـ « وأبحث عن الاطمئنان ·· »

ـ « ستجده »

ـ « كيف ؟؟ »
ـ « عندما تطلق شهوات الدنيا ·· »
ـ « فلا داعي للزواج اذن »

ضحك شيخي واحتقن وجهه وقال :
ـ « الزواج سنة الله وليس شهوة من الشهوات ·· »

وعدت أقول :
ـ « الدنيا مغرية يا شيخي ·· »
ـ « ولهذا كانت معركة الانسان مع نفسه ·· »
ـ « لماذا خلقها الله هكذا ؟؟ »
ـ « أستغفر الله ·· لا يسأل عما يفعل ·· »
ـ « دائما أبحث عن علة الاشياء ·· عن حكمتها ·· »
ـ « فكر كيف شئت يا عثمان ·· لكن حذار أن تقترب من حافة الشك ، أو يخالط فكرك نازعة تمرد على حكمة الله ·· »
ـ « كيف ؟؟ »

ـ « ثق في عدل الله وحكمته •• »
ـ « نعـــم •• »
ـ « أنا المخلوق وهو الخالق •• »
ـ « أجـــل •• »
ـ « وشتان بين العقل ••• وخالق العقل •• »
ـ « أجـــل •• »
ـ « وميدان الروح فسيح •• والبصيرة الصافية مجالات لا حدود لهـــا •• »
وانهمرت دموعي فجأة ، وأخذت أنشج ، وربت شيخي على رأسي وقال في رضى :
ـ « لماذا تبكي ؟؟ »
ـ « لاني ضعيف •• وأخاف يوم الحساب •• »
ـ « بل أنت قوي قوي بدموعك •• »
ـ « أفي الدموع قوة ؟؟ »
ـ « أجل •• دموع الندم تغسل ثوب النفس وتمحو الوساوس •• الدموع اعتراف •• الجاحدون لا يبكون »
وهمست لشيخي :
ـ « أبكي كثيرا في الليالي الطويلة •• ودخلت «جاماكا» حياتي كشيطان جميل •• هل هذا هو الحب ؟؟
قال شيخي في جدية ظاهرة :
ـ « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما •• »
ـ « ولهذا أخرجتها من حياتي •• »
ـ « لماذا ؟؟ »
ـ « لان حبها طريق الى الشرك •• »
ـ « ليس تماما »
ـ « كيف ؟؟ »
ـ « من يحب الله ورسوله يستطيع أن يحب خلقه •• حبهما هو المدخل •• هو الحب الكبير الذي يظلل بأفرعه السامقة الخضراء

•• كل الدنيا •• أتفهم ؟؟ كل الدنيا •• »
ـ « أشعر بالحيرة •• »
ـ « العبادة يا ولدي حب •• والجهاد في سبيل الله حب •• وتنفيذ شرائع الله حب •• هل فهمت الحب ؟؟ »
ـ « فهمت أن الحب شيء غير الشهوة •• »
ـ « وفي الحب الحلال قدر من الشهوة لا فكاك منها •• »
قلت في فرح مباغت :
ـ « هذا ما أردت أن أعرفه بالضبط •• »
ضحك شيخي قائلا :
ـ « ما زلت تفكر طول الوقت في « جاماكا » ••• »
ـ « لا أنكر •• »
ـ « متى ستسافر ؟؟ »
ـ « غدا •• باذن الله •• »
ـ « المعركة في الطريق ستكون مريرة •• »
ـ « سأذهب بغنمي وأعود بثمنها •• »
ـ « الشهوات جنود الشيطان •• ستجدها في كل مكان ••
ـ « يا الهي •• العدو الظاهر من السهل التغلب عليه •• »
ـ « وعدوك الخفي يا ولدي هو الجدير بالحرب •• »

كانت كلمات شيخي جديرة بالنظر والتفكير ، وعباراته تحمل شحنات قوية مثيرة ، تفتح منافذ العقل والروح ، وتملأ وجودي بأريج من نوع عجيب أشعر بها ترطب كياني ، وتزودني بزاد لا ينفد ، فأحس بالامتلاء قلبا وروحا وفكرا ••

قلت في لهفة :
ـ « أتدري لماذا يشقى الانسان في عصرنا ؟ »
ـ « سؤال في غاية الاهمية »
ـ « لانه لم يجد بعد طريقه الصحيح •• »
ـ « أجل •• »
ـ « العذاب نابع من الشك والتردد والشعور بالضياع •• »
ـ « لكن هذه الحالة تنتابني أنا الآخر في بعض الاحيان •• »

ـ « نعم ·· في بعض الاحيان ·· كلنـا ·· أنـا ·· أنت ·· مجموعة من المواقف النفسية ·· أتفهم ؟؟

فهي مسالة نسبية اذن ·· ولهذا كانت التوبة ·· وكانت منازل الابرار ·· حياتنا كلها طريق طويل للتدريب ·· رياضة مستمرة ·· والاعمال بالنيات ·· وابراهيم قال لربه :

بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ·· أراد أن يرى المعجزة بعينيه ·· »

اختطفت يد شيخي وأغرقتها بالقبلات والدموع ···

٥

وفى صباح أحد الايام وصلت الى « لاجوس » عاصمة نيجيريا الاتحادية ، وهي تقع على جزيرة تتصل بالشاطىء بواسطة جسر كبير ، وهي مدينة تعج بالحركة والنشاط ، اذ يبلغ عدد سكانها ما يقرب من ثلاثة أرباع المليون ، نصفهم من المسلمين ، وتنقسم الى حى قديم للزنوج والى أحياء أوربية حديثة ،وفيها حي للتجار العرب يعرف بالحى العربى ، وفى لا جوس يختلط سماسرة السياسة والتجارة والاديان ، ويمتزج الايبو باليوروبا والهوسا ، وتدق أجراس الكنائس الكبيرة ، وينطلق صوت بعض المؤذنين ، اننى أنظر الى المدينة فأجد ملامحها غريبة ، هناك كثير من الوجوه لا تستطيع أن تميزها عن غيرها ·· هكذا هى لاجوس ، مدينة بلا تميز ، ليس لها سمات محددة ، وجوه سمراء وصفراء وبيضاء وحمراء ، ورهبان وشيوخ وبحارة وعساكر ، كل يبحث لنفسه عن مكان يركن اليه ، وفي القديم كان الاوربيون يطلقون على شواطئنا « ساحل العبيد » ··

وكانوا يسوقون أسرا بكاملها امامهم كما تساق الأغنام ، ويحشرونهم فى السفن القذرة أطفالا ونساء وشيبا وشبانا ويلقون بهم على شواطىء الدنيا الجديدة ·· أمريكا ·· عشرون مليونا صدرتها أفريقيا لامريكا على أيدى التجار والقراصنة الاوربيين ·· أى عذاب كان يقاسى منه هؤلاء التعساء ··

واليوم حلت البضائع والمواد الخام مكان العبيد ·· يصدرون البشر ، واليوم يصدرون جهود البشر ·· الافريقى هنا أو فى أمريكا ··· يعمل ويعمل دائما من أجلهم ومن أجل سماسرتهم ·· ولا يجنى

الافريقى سوى القليل ... المضحك أن أوربا حررت العبيد .. نعم، لكن لماذا ؟؟

التفسير الحقيقى شىء آخر غير ما يكتبه المؤرخون والمبشرون .. لقد قضت بريطانيا على سوق العبيد حتى ترتفع أجور العمال فى أمريكا ، وتقل الايدى العاملة هناك ، فترتفع أسعار التكلفة .. فلا تستطيع أمريكا أن تنافس سلع اوربا .. وكان شيخى دائما يقول انما الاعمال بالنيات .. ما أسوأ نيات المستعمرين ...

وأخيرا ذهبت الى الحى العربى .. أشعر بكثير من الاطمئنان وأنا أمضى فى طريقى الى هذا الحى ، كأنه جزء من بيتى .. وهناك فندق عتيق آوى اليه دائما ، تمتلكه أرملة مهاجرة من احدى البلاد العربيـــة ..

ــ « طاب مساؤك يا سيدة « علية »

قالت وهى تستقبلنى بابتسامة لا انفعال فيها :

ــ « حجرتك لحسن الحظ خالية .. اننى سعيدة برؤيتك .. »

ــ « شكرا ... »

قلتها وأنا أتناول منها المفتاح ثم استطردت :

ــ « هل لديك أحد من تجار الاغنام ؟؟ »

ضحكت وقالت :

ــ « عندما تنـزل الى صالـة الطعـــام .. فستجد الصالـة كالحظيرة .. »

لوحت بسبابتى متوعدا فى مزاح :

ــ « لا أحب السخرية .. »

ــ « بعض المزاح فى هذه الحياة الرتيبة الكئيبة .. »

ــ « أما زلت ترفضين الزواج .. »

ابتسمت قائلة :

ـ « سوف أتزوج عندما أرى أن طالب يدى لا ينظر الى كما ينظر الى صفقة رابحة ·· »

وهممت أن أتكلم لكنها قاطعتنى قائلة :

ـ « وأنت ؟؟ »

وعادت الى الذكريات ، قلت وأنا أسرع صوب السلم :

ـ « عندما أجد امرأة مؤمنة ·· »

هتفت فى أعقابى :

ـ « الحياة تجارة ·· »

ـ « لكنك ترفضين التجارة فى مسائل الزواج ·· »

ـ « بالضبط ·· أرفض الطمع ·· »

ووجدتنى أعود اليها ثانية لاقول :

ـ « عندما يتعلق قلبك ببشر يا مدام عليه ·· فستذوب كل الاعتراضات ·· »

ـ « وأنت ؟؟ »

نظرت الي في اهتمام وشردت قليلا ، ثم قالت :

ـ « لو امتلأ قلبك بحب مومس ، فسيكون من الصعب عليك التخلص منها ·· نحن لعب صغيرة ·· تافهة ·· لا ارادة لها فى يد القدر ·· »

ـ « اتؤمنين بذلك ؟ »

ـ « بكل تأكيد ·· »

ـ « ففيم الاعتراض اذن على طالبى الزواج منك ؟؟ »

ـ « اللعبة لم تتم ·· من يدرى ؟؟ قد أسقط فى يد أكبر التجار جشعا ··· »

وتنهدت قائلة :

ـ « اذهب لتغير ملابسك ·· ولتفكر أولا فى غنمك ·· »

كنت ــ كأبى ــ معروفا جيدا لدى الكثيرين من مشترى الاغنام فى « لاجوس » هذه المدينة تستهلك الكثير من اللحوم ، كما تستهلك الكثير من الخمر ، هنا بعض القبائل توزع الخمر فى المآتم ، لا أعلم من أين أتوا بهذا التقليد الغريب ، وأثناء تناول الغذاء فى الصالة الكبيرة بالفندق التقيت ببعض التجار ، قال لى كبيرهم :

ــ « أنظر •• الرجل الجالس هناك فى أقصى اليسار •• هو الذى سيشترى غنمك •• يجب أن تحذر منه ، انه مساوم من الطراز الاول •• »

كان الرجل الذى أشار اليه يأكل وعيناه تتحركان فى كل اتجاه ، وأمامه كأس من الويسكى ، وكان يتلفت ، وكأنه من عصابة لا يعرف أفرادها ، فى عينيه مكر وشكوك وقوة خفية ، الحقيقة اننى لم أرتح لمنظره ، وجهه المشرب بالحمرة يوحى بأنه انجليزى ، كرهته لاول وهلة ، انطباع لم أستطع منه فكاكا، لكن لماذا أبيع لهذا الشخص بالذات ، قال صديقى التاجر القديـــم :

ــ « انه نوع من التنظيم بيننا وبين المشترين •• »

وضحك ضحكة عالية وقال :

ــ « بل لعله نوع من الاحتكار •• »

أردفت قائلا :

ــ « أو التواطؤ •• »

ــ « ربمــــا •• »

قالها وهو يهز كتفيه ، فعلقت متسائلا :

ــ « لم كل هذا ؟؟ »

ــ « نحن مضطرون لذلك ، لان كبار المستهلكين فى المدينة لا يأخذون ما يحتاجون اليه من أغنام الا عن طريق الوسطاء •• وهذا أحد الوسطاء •• »

لكنى استبعدت مشاعرى الشخصية ، البيع والشراء مسألة لا دخل للعوطف فيها ، لقد قطعت المســافــات الطويلة بقطعاني . وتكبدت المشاق ، وأستأجرت عددا من الحراس ، وأريد أن أزيح عن كاهلي عبء هذه الصفقة الكبيرة ، ان هي الا ساعة أو بعض ساعة ، وأكون قد انتهيت مما أنا بصدده ، وبعد أن تناولت طعامي قصدت الرجل الجالس وحده ، كان قد انتهى من طعامه وشرابه ، ألقيت عليه التحية ، رمقني بنظرات متفحصة ، ورد التحية بفتور ، لشد مـــا يضايقنى الاستقبال الخالى من الحرارة ، قال بانجليزية غير أصيلة :

ــ « عرفت أنك هنا ، كم رأسا معك ؟؟ »

استغفرت الله ، وأخذت أعطيه أرقام القطعان ، وحالتها العامة، قال بايجاز وهو يجفف فمه بمنديل قاتم اللون :

ــ « بكم تبيع ؟؟ »

ــ « أنت المشترى ٠٠ »

ــ « حسنا ٠٠ لا أعرف المساومة ٠٠ »

وكم كانت دهشتي عندما أخبرنى بثمن بخس لم أتعود البيع به من قبل ، فأبديت رفضى على الفور وأنا أكاد أصفعه ، غير أنى كنت متمالكا تماما لاعصابى، يجب أن يكون التاجر صبورا متسامحا، قال وهو يزفر فى ضيق :

ــ « لن تجد ثمنا أكثر من ذلك ٠٠ »

ووجدتنى أنصرف عنه ، تركت مائدته ثائرا ، وعدت أرتجف غيظا الى مكانى القديم ، مال على التاجر الاول الذى أرشدنى عنــه قائـــــلا :

ــ « لا تتضايق ٠٠ »

ــ « انه غريب الشأن »

ــ « هكذا دائما اليهود ٠٠ »

صرخت فى دهشة :

ـ « أهو يهودي ؟؟ »

ـ « أجل اسرائيلى محنك .. وصاحب أكبر شركة لتجارة اللحوم .. »

قلت فى اصرار والشرر يتطاير من عينى :

ـ « لن أبيعها له ولو نفقت كلها وأكلتها الوحوش .. »

ـ « ستجد مشقة بالغة فى بيعها .. »

ـ « ليكن .. سأبيعها للجزارين »

ـ « بالطبع هذا أفضل ، لكن قطعانك كثيرة ، وستبذل جهدا كبيرا فى المرور على الجزارين ، أنت تحتاج لاكثر من خمسين جزارا .. »

وخرجت الى الشارع ، المدينة شديدة الرطوبة ، والكآبة تجثم على قلبى ، وهموم القطعان التى لا بد من بيعها تبعث الضيق فى نفسى ، وتذكرت شيخى « عبد الله » .. كثيرا ما كان يحدثنا عن الصبر والاعتماد على الله ، وأن أرزاقنا فى السماء ، وهى محسوبة بدقة ، وملت على أقرب مسجد لأودى الفريضة ، وفى المسجد شعرت ببرد اليقين والهدوء والسلام والطمأنينة تترقرقان في جنبات المسجد وهناك بعض الكتب العربية القديمة ، تناولت واحدا وأخذت أقرأ بعض الاوراد والتسابيح ، ثم خرجت بعد ساعة الى الشارع .. اننى أمضى فى بلادى كالمطارد الغريب ، نفس الشعور الذى كنت أشعر به ابان الاحتلال الانجليزى، خروج العدو لم يغير كثيرا من مشاعرى، لانى أرى أنواعا جديدة من العبث والاستغلال والكبت ، شعبى فى قبضة مارد ضخم يلعب بمصيره بطريقة غريبة ، الخبث هو الخطة الجديدة ، والسيطرة على منافذ الاقتصاد والمال والتجارة ، تشكل خطرا واستعمارا من نوع جديد ..

قد يكون الغريب اننى استطعت فى اليوم التالى بيع كل ما عندى من الاغنام فى خلال بضع ساعات ، فقد استطاع أحد التجار العرب أن يرشدني الى متعهد للتغذية فى الجيش ، وكان الثمن ضعف ما عرضه اليهودى ..

ولاجوس في الليل تنضح بخطايا كثيرة ، ووراءها يكمن المخطط الصهيونى ، هذه أندية القمار ، وتلك حانات الرقص والخمر ، وهناك بيوت الدعارة ، وللاسف كثير من التجار يغرقون فى خضم هـذه الموبقات ، وينزفون أرباحهم على مذبح الرذيلة، العدو يشترى ويبيع، لكن كل شيء يعود الى جيبه ، والجماعات السياسية تتناحر من أجل منصب وزارى ، أو الفوز بمقعد فى الانتخابات العامة والفتن تشتعل بين المسلمين والوثنيين والمتنصرين ، والامور تدار بطريقة شيطانية خبيثة .. لشد ما كرهت « لاجوس » عاصمتى التى أتمنى أن أحبها ، لكنها الآن أصبحت رمزا للمؤامرات والاستسلام والغفلة .. والجميع ضحايا او لعبة متهافتة فى أيدى الماكرين والدهاة ..

فى المساء تذكرت «جاماكا» هذه الملعونة ما زال خيالها يطاردنى، يخيل الى اننى أسمع غناءها فى الحانات، وأسمع الحانها الغجرية الصارخة وأتصورها وهى تتمايل بجوار الكؤوس وشياطين الرغبة يلعقون خديها .. وتبدو لى كأنها تسخر منى وتقول :

« أنظر العالم من حولك .. الجميع يستمتعون .. ويمرحون .. ولا يفكرون فى الغد ، وأنت وحدك ، متشبث بالطهر والعفاف ، أنت تعيش على الهامش .. وليس وراء المجهول غير الموت الابدى .. »

كلماتها المتخيلة ترن فـى أذنى ، صوتهـا العابث المثير يهز كيانـــى ..

« جاماكا » هى نيجيريا الجنوب اللاهى المتمزق المنطلق فى مجال الشهوة والعربدة ، الساقط بين براثن الغدر والخيبة ، الذي

باع نفسه للشيطان ..

وفتحت حقيبتي لابحث عن المصحف .. انه الجرعة الشافية التي أشربها كلما تعبت الروح ، وسقم القلب ، وراودتني الاحزان والاوهام ، ونخر في فؤادي الوهن ، واستبدت بي الهموم .. وحي العرب للاسف تغير كثيرا .. المسلمون فيه لا يتحدثون كثيرا عن الله ، احاديثهم عن التجارة والمال واسعار البورصة ، اغلبهم من شيعة ايران ولبنان وسوريا وشرق أفريقيا .. كان آباؤهم غير ذلك ، هكذا حدثني ابي .. كانوا يسافرون للتجارة حاملين مصاحفهم ودعوتهم الى الله حتى هدى الله بهم خلقا كثيرا ، اما اليوم فقد تغيرت الحال ، وساءت الامور ، وأصبح همهم المال والدنيا ..

قلت لاحد أصدقائي القدامى :

ـ « لقد نسيتم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر .. »

ابتسم في يأس وقال :

ـ « ليس لدى الوعاظ وقت ليقولوا ، وليس لدى السامعين وقت ليسمعوا .. »

ـ « اننا نهدم بذلك ديننا .. »

ـ « نحن نصلي ونصوم .. ونحتشد في يوم الجمعة .. »

ـ « الدعوة الى الله شيء آخر .. »

ـ « ماذا تعني ؟؟ »

ـ « يجب أن نمشي في الشوارع والحوانيت والغابات .. »

هز رأسه قائلا :

ـ « هذا حق .. »

ـ « ففيم التقاعس ؟؟ »

تنهد في ألم وقال :

ـ « الدعاة هنا مطاردون .. انهم يصطدمون بعقبات لا يدري

أحد من أين تنطلق ، كثيرون منهم يبعدون ، أو يصرعون فى الظلام، أو يحرمون من فرص الحيـاة ، أو يطردون مـن الوظائف ، تحت أسباب غريبة لا تمت الى الحقيقة بصلة ٠٠ وقانا الله واياك شر الفتن ٠٠ »

لم أنم ليلتى الاخيرة فى لاجوس كما يجب ، فقد أمضنى الارق والتفكير ، وتذكرت وصايا شيخى ، أحصيت ما معى من مال ، وقررت أن أخوض المستنقعات والغابات داخل أرض الايبو فى الشرق ، داعيا الى الله قال أحد رفاقى ـ وقد صحبته معى لحراسة القطيع واسمه عبد الرحيم :

ـ « نحن نخاطر بأنفسنا ٠٠ »

ـ « أعرف ٠٠ »

ـ « ففيم المغامرة ؟؟ »

ـ « ان صوت الله يجب أن يسمع »

ـ « لماذا خلقنا يا عبد الرحيم ؟ »

ـ « لنعيش يا عثمان ؟؟ »

ـ « الدعوة الى الله حياة ٠٠ والموت فى سبيله خلـود ٠٠ »

ـ « لكننا نحمل وصايا الانبياء ٠٠ »

وشردت ببصرى الى بعيد وأنا أردد :

ـ « أنا على موعد مع الجنة ٠٠ حدثنى شيخى عن جنة عرضها السماوات والارض ، تجرى من تحتها الانهار ، وعن الصالحين الذين ينعمون بأروع ثواب ٠٠ برؤية اللـه ٠ وأنا أرى الطريق جيـــدا »

ولن أرجع الا اذا ترددت كلماتى فى جنبات الغابات وسمعها البشر فى أى موقع أنزل به ٠٠٠٠ »

وهمس عبد الرحيم :

ـ « أنا معك ، وأمرى الى الله ٠٠ »

ـ « أما هذه يا عثمان ، فلن أتقاضى عليها أجرا •• اريد أن أقدم شيئا لوجه الله •• شتان بن رحلة التجارة ورحلة العبادة •• فلنسر على بركة الله •• »

وترقرت الدموع فى عينى عبد الرحيم ، فضممته الى صدري فى حنان ، وامتزجت دموعنا ••

واستأجرنا سيارة لاندروفر ، وانطلقنا الى الشرق فى الصباح الباكـــــر •••

* *

٦

ان اختراق الغابات الاستوائية أمر مثير للغاية ، والضرب فى جنباتها يكمن فى طياته الموت ، النوم فيها مليء بالاحلام المزعجة ، والسير نهارا يورث القلق ، فالاشجار كثيفة ، وبعضها عال جـدا ، قد يصل ارتفاعها الى ستين مترا ، وتبدو الاشجار المتلاحمة العالية ، على شكل عدة طبقات ، وهناك أشجار تلتف على بعضها وتتسامى طلبا للنور ، فتصبح ذات جذوع ضئيلة بالنسبة لفروعها الكثيرة المتشابكة ، والجذور تضرب فى باطن الارض الى اعماق بعيدة ، وبعض هذه الجذور تظهر على سطح الارض وتمتد كالقضبان المتوازية أو المتقاطعة ، وتوجد شجرة « الباؤباب » التى تعرف بجذوعها الضخمة، والتى يتخذ بعض الافراد فيها مأوى لهم بحفر الجذوع بعد قطعها ، وفى تلك الغابات يكاد يعيش الانسان فى ظلام دائم ، فالنهار تحجب الاغصان المتشابكة ، والاشجار المتزاحمة ضوءه ، والليل يزيدها حلكة ورعبا ، وغالبا ما يتسلق الانسان أو الحيوان تلك الغابات ويعيش بعيدا عن الارض تجنبا للنمل الطيار الكبير ، والافاعى المخيفة ، وذباب « تسي تسي » وغير ذلك من الهوام والحشـــرات

وفي مناطق الغابات يعيش السكان على قطع الغابات، ويزرعون مكانها الكاكاو وشجر زيت النخيل « النارجيـل » وجـوز الهنـد وغيرها ، والبعض يعيش على الصيد البري فى الغابات ، وقسم ضئيل يعتمد على التجارة ، ويصعب تربية الماشية فى هذه الغابات بسبب سوء المناخ ، وللضرر الكبير الـذي تسببه « تسي تسي »

وقد اكتشف الفحم فى بعض مناطق « الايبو » ، لكن أغلب العمال العاملين فيه من المسلمين الزنوج · كانت وجهتي اذن مناطق

الايبو، خاصة الغابات •• وقبائل الايبو عدة ملايين ، وهم متأخرون بالنسبة لليوروبا فى الغرب •• قراهم صغيرة وتعتمد على النخيل الزيتي فى حياتها •• ولقد انتشرت النصرانية بين كثيرين منهم عن طريق المبشرين والتسهيلات التى كان يقدمها لهم الاستعمار ••

وهناك بعض الغابات التى قطعت وظهر مكانها أشجار جوز الهند والكاكاو والموز والفواكه الاخرى •• وهذه الغابات أكثر ما تكون فى وادي نهر « النيجر » « والبينوئي » ••

لقد دخل الاسلام نيجيريا عن طرق الشمال ، أما النصرانية فقد اتت مع المستعمرين من الجنوب ، الا ان هناك كثيرا من القبائل يدينون بالوثنية ويعبدون قوى الطبيعة ، ويتركز أكثر هؤلاء فـــي الجنوب في منطقة الغابات ••

قال لي صديقي عبد الرحيم :

ـ « أعتقد أنك لن تستطيع أن تنجز شيئا ذا بال فى هذه الجولة القصيرة ، لكي تدعو هؤلاء الناس الى دين الله الحق يجب أن تبقى بينهم سنين طويلة •• »

قلت ونحن نسرع بالسيارة التى أقودها بنفسى :

ـ « أتعرف قصة « نواكوى » ؟؟ »

ـ « من نواكوى ؟؟ »

ـ « أحد المبشرين بالدين المسيحى •• »

ـ « ماذا جرى له ؟؟ »

ـ « سافر ذات يوم الى السنغال •• والتقى بأحد علماء الدين المسلمين هناك •• وكـم كانت دهشته حينما اكتشف من خـلال المناقشة أن الاسلام هو ما يجب أن يؤمن به •• وعندما عاد الى قريته النيجيرية •• شرح للقرية •• آمن به أكثر من ستة آلاف شخص •• أترى •• رجل واحد هداه الله الى اليقين فى وقت قصير تبعه آلاف من الايبو »

وبرغم الامل والثقة اللذين يعمران قلبى الا انى كنت مدركا لعظم العمل الذى أقوم به ، كنت واثقا أن الشعب الذى يجمعه هدف اسمى ، وتربطه عقيدة سمحاء ، قادر على أن يثبت أمام أعاصير الغزاه ،ومؤامرات الاعداء •• »

وأطبق الليل ، والغابة تبدو شاسعة كصحراء من الشــــك والاضطراب والخطر ، وقال عبد الرحيم والمطر يتساقط ، ويتردد صدى سقوطه على الاوراق الخضراء فى شتى الانحاء :

ـ « لا بد أن نستريح •• »

ـ « بالطبع •• »

ـ « فالليل يا صديقى وعر المسالك •• »

وأضأت كشافا كهربائيا ، كما أضأت مصابيح السيارة ، فى الطريق الضيق المهد بطريقة بدائية ، وأخذنا نبحث يمنة ويسرة عن مكان آمن ••

ـ « الجلوس على سطح الارض لا يؤمن جانبه •• »

ـ « لم لا ننام داخل السيارة ؟؟ »

هذا ما اقترحته لكن عبد الرحيم قال :

ـ « فلنتسلق هذه الشجرة الضخمة ولنتخذ لنا موقعا فوقها ، ولنترك السيارة كما هي ، » كانت فكرة صديقي تعني الأمن الكافي لنا ، فلو حاول أحد أن ينقض على السيارة لما وجد بداخلها انسانا، وبذلك نستطيع أن نرقب الطريق والسيارة ، ونتجنب المفاجآت•• مجرد خدعة بريئة لا تعني سوى الحيطة والحذر ، ان شعورنا مهما كان الامر يختلف عن أي شعور آخر لدى أولئك المغامرين الباحثين عن الثروة أو الهادفين للسيطرة على القبائل ، أو الذين تحركهم

أهداف سياسية ، نحن غير هؤلاء جميعا اذ ليس لنا مقصد سوى أن ندعو الى الله ، وهذا يعمق شعورنا بالرضى والثقة والصبر على المكاره ..

ـ « عبد الرحيم .. »

ـ « ماذا تريد مني ؟؟ ان ما أفكر فيه الآن الاكل يا عثمان .. »

ـ « سوف نأكل ونتحدث .. »

الافضل أن نأكل في صمت ...

ـ « أردت أن أقول أنه علينا أن نتناوب النوم ، نصف الليل الاول أنام فيه ، وانت في النصف الثاني .. »

ـ « يخيل الى انني لن أستطيع النوم مطلقا »

ـ « هل أنت خائف يا عبد الرحيم »

ـ « أنا لا أخاف الموت ، لكنى ما دمت حيا ، فان هناك عواطف لافكاك منها في قلب الرجل الحي »

ـ « أعلم ، نحن بشر .. »

أكلنا وشربنا ، واضطجعت على بطانية سميكة ، ووضعت حذائى كوسادة تحت رأسى ، بينما أخذ عبد الرحيم يدندن بأغنية افريقية ، يترنم بها بعض الايبو في الشمال ، لعله حفظها عنهم ، قلت :

ـ « أتعرف معنى لهذه الاغنية الشعبية ؟؟ »

قال عبد الرحيم مترجما للاغنية :

« حبيبتي السمراء الفاتنة

« تتواثب فوق الاغصان الخضراء المجدولة

« تحمل في عينيها الشوق العارم ..

« تنساب أغانيها الحلوة

« كالسحر العابق في قلب الغابة

« المارد يحتضن طبوله ..

« ضربات متوهجة النبـــرات
« ودمائي يشعلها اللحن الاكبـــر
« الحب هو اللحن الاكبـــر
« حبيبتى السمراء الفاتنـــة
« أبوها ملك قبيلـــة
« تحرسه سهام لا ترحـــم
« أنا أبحث عن ثغـــرة
« أنفذ منها لفتاتى الحلـــوة ..

* *

ولم أستطع أن أتابع أشعار « الايبو » فقد غلبنى النوم ، ولم أعد أعي شيئا ، ولست ادرى أطـــال الوقت أم قصـــر ، فقـــد استيقظت على حركة عنيفة ، وضربات متتالية ، ونظرت حولى ، كان عبد الرحيم يضيء الكشاف ويهوى بمؤخر « البندقية » في ضربات قوية ، وصحت :

ـ « ماذا جرى ؟؟ »

وجريت صوبه ، كان يقتل حية كبيرة

ـ « هل أصابك مكروه »

ـ « الحمد لله ، لقد اكتشفتها فى الوقت المناسب »

كان يلهث ، واستطرد يقول :

ـ « تستطيع أن تكمل نومك .. »

ـ « لا أستطيع ، أشعر بأنى استرحت بما فيه الكفاية .. »

ولم أستجب لالحاح عبد الرحيم كى أستأنف النوم ، فما كان منه الا أن أستلم مكانى ، وراح فى سبات عميق بعد دقائق معدودة، وجلست وحدى ممسكا بغدارتى ، أدقق النظر فيما حولى ، الظلمات

المتكاثفة تختلط بالخضرة الزرقاء وقطرات مطر تتساقط وعشرات الاصوات للهوام والحشرات والحيوانات الغريبة تمتزج كلها فتخرج ضجة لا يمكن وصفها بدقة ، وبدت لى الغابة المكتظة بالاشجار والحيوانات وكأنها صحراء مليئة بالغموض الفسيح ٠٠ هنا لا تكاد توجد أية معالم ٠٠ كالصحراء تماما ٠٠ والانسان يلجأ الى الفطرة والايعاز الداخلى ليجد طريقه ، معرفة الجهات الاصلية وقليل من الجغرافيا يسهل مهمة السير فى هذه الغابات الكثيفة ٠٠٠

وتسلل الينا ضوء خفيف بعد أن أشرقت الشمس ، وكان من المتوقع أن نترك هذا الوادي الذى تغرقه الغابات ، ونبلغ تلا مرتفعا بعد السير بضع ساعات ، واستيقظنا وتناولنا القليل من الطعام ، وشرب كل منا كوبا من الشاي ثم استأنفنا المسير ٠٠٠

قال عبد الرحيم والسيارة تعلو وتهبط فى الطريق الضيق غير الممهد :

ـ « أتعتقد أن للحياة قيمة ؟ »

ـ « قيمتها فى طاعة الله ٠٠ »

سكت عبد الرحيم ، لم يعلق بكلمة ، وبعد دقائق قال :

ـ « وما هى طاعة الله ؟؟ »

ـ « تنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه يا عبد الرحيم ٠٠ »

ـ « أى أوامر ونواه ؟؟ كل ذي ملة له أوامره ونواهيه ٠٠ »

ـ « الفضائل فى كل دين تكاد تكون واحدة ، وقد أتى محمد صلى الله عليه وسلم بالكلمة الاخيرة ، ولم يتنكر لما سبقه من أديان الا ما تناولته يد التحريف ٠٠ »

هز عبد الرحيم رأسه قائلا :

ـ «صدقت ٠٠ »

ـ « وتنهد ، ثم قال :

ـ « اذن قيمة الحياة فى الطاعة »
ـ « أجل ٠٠٠ »
ـ « ما أعظم أن يأوي الناس جميعا الى ظل طاعة الله ٠٠ »
ـ « ولهذا نقتحم الغابات ، ونغالب المشاق ٠٠ »
أشرق وجه عبد الرحيم بالفرحة الغامرة وقال :
ـ « أنا سعيد جدا بهذه الرحلة الطيبة ٠٠ »
وضغطت فجأة على كابحة السيارة فتوقفت عندما سمعنا صيحة مميزة انطلقت على مقربة منا ٠
ـ « ماذا هناك يا عبد الرحيم ؟؟ »
ـ « لعلنا اقتربنا من احدى القرى »
ـ « هذه الصيحة ـ حسبما أعتقد ـ تنبى عن قدوم قوم غرباء ، أعتقد أن رجلا من الايبو يخبر قبيلته بمجيئنا ٠٠ »
ـ « هو ذاك ٠٠ »
وما ان أستأنفنا المسير ، وأقتربنا من حافة الغابة ، حتى وجدنا أنفسنا محاطين بعدد كبير من الرجال العراة تماما ، وفى أيديهم السهام المشرعة ، وبعضهم يحمل بنادق انجليزية حديثة الصنع ، لم نصب بشيء من الخوف أو الارتباك ، فهذه طبيعة الايبو اذا ما اخترق عزلتهم غريب ، أغلقت السيارة ، وضممت يدى محييا ، وأنا أهز رأسي توقيرا لزعيمهم ، ثم قلت :
ـ « جئنا لمقابلة الامير ٠٠ »
رد أحدهم بلغة الايبو :
ـ « من أنتم ؟؟ »
ـ « ضيوف ؟؟ »
ضحك وقد بدا على وجهه شيء من الاطمئنان وقال :
ـ « هكذا يقول كل من يأتي الى هنا ، لعلكم تجار ؟؟ »

ـ « بل جئنا لغاية نبيلة ••• »

قال قائدهم ويبدو أنه رجل محنك طحنته التجارب :

ـ « هذا ما سنعرفه فيما بعد »

وأشار الى بعض رجاله فركبوا السيارة ، وجاء هو وجلس الى جوار عبد الرحيم من الخارج ، ثم أعطى الاشارة بالسير ، فانطلقنا حسب ارشاداته ، وبقينا سائرين حتى بلغنا مجلس الامير ، كان فى حوالى الخمسين من عمره ، قوى البنية ، حاد النظرات ، يلبس كثيرا من عقود الخرز ، ويحيطه من حوله بمزيد من التجلة والفخار وعلى الرغم من أن ملامحنا توحى بأننا غير غرباء الا اننى قلت فى ثقـــــة :

ـ « نحن اخوة •• قدمنا من نيجيريا الشمال •• »

هز رأسه محييا ، وقال ما معناه ، اننا فى بلدنا ، وأننا على الرحبة والسعة ، ودار بيننا حديث طويل عن الاحوال العامة والتجارة وعن جمال مدينة سوكوتو وأحمد بيللو وغير ذلك من الامور ••

الشيء الغريب الذى لفت نظرى ، هو أنه بعد ساعة من وصولنا فوجئنا بقدوم أحد المبشرين الاوربيين ، الذى حيا شيخ القبيلة أجمل تحية ، ثم صافحنا وهو يقول :

ـ « توم •• الاب توم •• يسعدنى أن أرحب بكم »

يتكلم من مركز القوة ، كلماته تعنى أن الارض أرضه ، والبيت بيته ، يبدو أن مهمتنا هنا ستكون صعبة ، وفكرت آنذاك أن نترك القرية ، ثم ننتقل الى مكان آخر ، وكان الاب توم « يرمقنا طـــول الوقت بعينيه النافذتين من تحت المنظار الطبى الصافى الذى يبدو منسجما تماما مع وجهه الاشقر ، والصليب الذهبى الذى يستقر على صدره ، وملبسه الكهنوتى البالغ النظافة ، قـال الاب تـوم :

ـ « أية مهمة نستطيع أن نؤديها لكم •• »

قلت فى شىء من الضيق المكظوم :

ـ « لقد جئنا لامير القبيلة »

ـ « أمير القبيلة رجل طيب ، ويرحب بالغرباء •• »

قلت فى حدة :

ـ « لسنا غرباء •• »

ـ « يبدو أنكم من نيجيريا الشمال »

ـ « أنت تعلم أن نيجيريا بلد واحد أيهـا الاب تـوم •• »

ـ « بالتأكيد ••• »

ثم عاد الاب توم يقول :

ـ « يبدو أنكم لم تزوروا الايبو منذ زمن طويل •• »

ـ « نعـــم •• »

ـ « الدنيا تتغير •• هم الآن أكثر تحضرا ومدنية عن ذى قبل، ويدركون أن لهم رسالة فى الحياة ، ويقتربون أكثر وأكثر من ملكوت السيد المسيح •• المسيحيون منهم مسيحيون حقيقيون ••

التفت الى أمير القبيلة مستأذنا :

ـ « نريد أن نستريح بعض الوقت ، ونود أن نلتقى فى المرة القادمة على انفراد ••• »

تدخل الاب توم قائلا :

ـ « حسنا •• أنا أنصرف بدورى •• اذ لا بد من المرور على المدرسة التى أشرف عليها ، ولا بد أن أعرج على المستوصف الصغير الذى نداوى به المرضى •• يسعدنى أن تزورونى فى منشآتى هنا ستجدون أيضا مكتبة لاهوتية جميلة بها عدد لا بأس به من الكتب الانجليزية القيمة •• »

وانصرف الاب توم قبل أن ننصرف ••

قال عبد الرحيم بعد ان استقر بنا المقام فى بيت صغير متواضع

جعلته القبيلة للضيافة :

ـ « يبدو أننا وصلنا متاخرين •• »

ـ « لقد جئنا فى الساعة التى أرادها الله •• »

ـ « الاب توم يبدو عليه أنه رجل سياسة أكثر من رجل دين »

ـ « هو ذاك •• »

ـ « قد يستطيع أن يفشل مهمتنا •• »

ـ « سنقول كلمتنا مهما كان الامر •• »

ـ « يبدو أن له بعض الجواسيس يخبرونه عن كل قادم جديد •• »

ـ « بالطبع والا لما أتى هكذا بسرعة •• »

وأخذت أمعن الفكر فيما يجب أن أفعله ، وكان لا بد أن نقوم بجولة سريعة فى انحاء القرية لنأخذ فكرة عامة عن البيئة التى جئنا اليهـا ••

❋ ❋

٧

أثناء تجوالنا فى انحاء القرية القائمة على أطراف الغابة ، والتى تقبع خلفها غابات أخرى ، كانت توجه الينا أسئلة كثيرة ، أغلبها ينصب على السبب الذى جئنا من أجله ، وكنت أشك أن مصدر هذه الاسئلة هو الاب توم ..

وليس غريبا أن يثار التساؤل من حولنا كقوم غرباء عن القرية، ومع ذلك فقد كنت أرى عينى « توم » النفاذتين تقفان وراء كل سؤال، ان لدي خبرة طويلة بهؤلاءالمبشرين الذين يعميهم التعصب أحيانا عن الصدق ، فيعادون الحقيقة أكثر مما يصادقونها ، ويعزفون على أوتار التفرقة والشر ،ويثيرون الفتن والحزازات ، همس عبد الرحيم ونحن نستقر ثانية فى بيت الضيافة :

ـ « أرى نُذر المتاعب تحوم من حولنا »

قلت فى نبرة اصرار :

ـ « أنا أكره التحدى ، لكننى هذه المرة مستعد تماما لمواجهة « تـــوم »

وعاد عبد الرحيم يقول :

ـ « أرى على ملامح وجهه سمات ضابط حرب قديم ، وليس رجل ديـــن »

ـ « ليس غريبا أن يكون كذلك »

ـ « اذن فالمعركة بيننا وبينه ستكون حامية الوطيس .. »

ـ « ليكـــن .. »

قال عبد الرحيم معترضا :

ـ « نحن لا نملك شيئا ، أما هو فيملك الكثير •• »

ـ « ماذا تعنى ؟؟ »

ـ « هو اجنبى ، وبعض الناس يتبعونه ، ومعه المال والخدمات التى يقدمها لهم ، ثم أنه يستطيع أن يوقظ الفتن القديمة التى أثارها الاستعمار بين « الايبو » « والهوسا » •• وفى ذلك خطر كبير »

ـ « استمع الى جيدا يا عبد الرحيم •• نحن نملك الصدق •• ولينصرن الله من ينصره •• لقد خرجت أساسا فى رحلة الى الله ••»

ولم يمض على بقائنا ببيت الضيافة سوى ساعتين أو ثلاثة حتى قدم الينا رجل من « الايبو » كان قصير القامة ، كبير الرأس ، ضيق العينين ، ووجدناه أمامنا فجأة ، لم يلق علينا التحية ، استطعت أن أقرأ فى عينيه الضيقتين شيئا ما ، ومع ذلك فقد ابتسمت له مرحبا ، لم يرد على تحيتى ، وانما وقف كالصنم بالباب وفى يده رمحه الطويل ، وقال :

ـ « ارحلوا عن هنا •• »

قلت فى دهشة :

ـ « لماذا ؟؟ »

ـ « لا نريدكم فى قريتنا •• »

ـ « لكن زعيم القبيلة رحب بنا »

ـ « لا يهم •• »

ـ « ما معنى قولك ؟؟ »

ـ « معناه ان لم ترحلوا يصيبكم شر •• »

ـ «لكننا لم نسىء اليك »

قمت واقتربت منه ، ثم سددت اليه نظرات لا تضطرب وقلت :

ـ « أنت لست من الايبو »

أدهشته كلماتي ، وفتح عينيه على الآخر وقال :

ـ « كيف ؟؟ »

ـ « الايبو اخوة لنا ٠٠ ودائما يستقبلوننا بالترحـــاب ويعرفون واجبات الضيافة أكثر من ذلك ٠٠ »

ارتبك ، وبدت عليه مظاهر الاضطراب ، وقال :

ـ « لماذا جئتم ٠٠ »

ـ « جئنا لخيركم ٠٠ »

ـ « بل جئتم لتخرجونا من ديننا ٠٠ »

ضحكت ، وأدركت الدافع وراء كلماته وقلت :

ـ « ليست هذه كلماتك ، ولكنها بوحي من الاب « توم »

فغر الرجل فاه دهشة وقال :

ـ « كيف عرفت ؟؟ »

ـ « لانني أعرف أخلاق الايبو جيدا ٠٠ وما قلته منذ لحظات غريب عن أخلاقكم وطباعكم ٠٠ انها كلمات لا يقولها الا عدو لدود »

ـ « لكن توم صديقنا ، ولقد علمنا الكثير ، وأغدق علينا من خيره ٠٠ »

ـ « الصداقة الحقيقية لا يعرفها توم ٠٠ انه يعرف مصلحته أين ، ويخدم سادته الذين قهرونا بالرصاص منذ سنين ٠٠ هل نسيت الدماء التي أريقت في الغابات ، ولونت الجبال ، وبعثت الحزن في أنحاء القرى والمــــدن ٠٠ »

ولما لم يجب بكلمة استطردت قائلا :

ـ « حسنا ٠٠ سنرحل ، لكن بعد أن نلبي دعوة الزعيم على العشاء ٠٠ لا يصح أن نهدر دعوة رجل عظيم مثله ٠٠ »

هز رأسه فى خجل ومضى لحال سبيله ، لكنى كنت أرى الخجل والخوف يوشي حركاته ونظراته ..

* *

التقينا فى المساء حول أمير القبيلة ، كان يجلس وحوله الحراس ، والاب توم على مقربة منه ، والنار مشتعلة ، والسماء بلا قمر وأخذ الرجال والنسوة يؤدون رقصة قومية حول النار ، والطبول تدق فى قوة وحرارة ، والاغانى ترتفع فى نغم افريقى شجى ، كنت أفهم جيدا معنى أغنيات الايبو ، و كنت أشعر بالاندماج فيها وأتمثلها حقيقة ، وأذوب فى أحلامها العذراء شعرت برباط عجيب يشدنى الى هؤلاء الناس ، وكم كانت دهشتى حينما رأيت عبد الرحيم يثب الى حلبة الرقص ، ويترنم بصوت شجى بأغنيته المحبوبة :

« حبيبتى السمراء الفاتنة
« تتواثب فوق الاغصان الخضراء المجدولة
« تحمل فى عينيها الشوق العارم ..
« تنساب أغانيها الحلوة
« كالسحر العابق فى قلب الغابة
« أبوها ملك قبيلة
« تحرسه سهام لا ترحم

ونظرت من حولى فوجدت زعيم القبيلة يبتسم فى رضى وسعادة ، والابتسامة تضىء وجهه الاسمر ، وتتماوج مع انعكاسات النار المشتعلة على وجهه ووجدت رجال القبيلة ونساءها يطربون لغناء عبد الرحيم ، ويرددون بعض المقاطع وراءه فى حماس منقطع

النظير ، وحانت مني التفاتة الى الاب توم ·· كان وجهه شاحبا مكفهرا ، يبدو عليه القلق والاضطراب فى جلسته ، لكنه كـــان يتمالك أعصابه ، ويتظاهر بالسرور والاعجاب ·· فى الحقيقة أن اقدام عبد الرحيم على الاشتراك فى الحفل كان نقطة تحول كبيرة فقد بدا لى أن الجميع ينظرون الينا كأصدقاء كأخوة ،وتوارى تماما شعور الغربة ، وأخذنا نتجاذب معهم أطراف الحديث فى ود وصراحة، وتكلمنا عن بعض الصفقات التجارية ، وقال أمير القبيلة « سوف تقضون معنا على الاقل عشرة أيام »

فقلت وأنا أنظر الى الاب « توم » :

ـ « قد لا يروق هذا البقاء لبعض الناس »

قال فى غضب :

ـ « كيف ؟؟ أنا هنا الذى آمر وأحكم ·· هل اساء اليكم أحـــد ؟؟ ·· »

قلت بلباقة وأنا أحدق فى توم :

ـ « الحقيقة أننا نشعر أننا بين أهلينا ·· »

ـ « تلك هى الحقيقة ·· »

وفى النهاية قال زعيم القبيلة كلاما فهمت منه أنه سوف يقدم لنا بعض نساء القبيلة كهدية طوال فترة الضيافة ولم يكن هذا غريبا عند بعض القبائل الجنوب والشرق ، فما أكثر ما يقدمون نســاء لبعض الضيوف الاعزاء وكان هذا منتهى الكرم والرعاية ، غير أنى قلـــت :

ـ « سيدى الزعيم ·· نشكرك ونأسف عن تقبـــل هـذه الهديـــة · »

نظر الزعيم الي فى دهشة يخالطها غير قليل من الغضب :

ـ « لمـــاذا ؟؟ »

ـ « نحن مسلمون ‥ »
ـ « مسلمون ؟؟ »
ـ « نعـــم »
ـ « ودينا يحرم هذا اللقـــاء ، ويعتبره غير شرعى ‥ لا استمتاع بالنساء الا فى ظل الزواج ‥ »
ضحك الزعيم وقال :
ـ « اذن فحيوانات الغابة أكثر حرية واستمتاعا منكم ‥ »
ابتسمت قائلا :
ـ « هم حيوانات يا سيدى الزعيم ‥ والانسان غير الحيوان »
وأخذت أشرح له معنى « ولقد كرمنا بنى آدم » ، ومعنى « ولا تقربوا الزنا » وآداب الاسلام فى العلاقـــات بين الرجـل والمرأة
واستطال بنا الحديث ، عن نظرة ديننا الى الالوان والاجناس، والدنيا والآخرة ، والانبياء والرسل والكتب المقدسة ، و «توم» يجلس قبالتنا يكاد يأكله الغيظ ‥
وقال الزعيم فى ابتسامة بريئة :
ـ « الحقيقة أن الاب « توم » كلمنى كثيرا عن أمور كهذه ‥ »
ثم نظر الى « الاب توم » قائلا :
ـ « معذرة يا توم » فقد كان من الصعب أن يستوعب عقلى كل ما قلته لي عما تسميه بطبيعة المسيح ‥ »
ثم عاد الى يقول :
ـ « غير أن كلامك يا عثمان ، يبدو لي بسيطا سهلا لا يتعب الرأس ، ومن السهل هضمه ‥ »
ودهشت أذ سمعت الاب « توم » يقول فى غضب :
ـ « الاسلام دين السوقة ورعاة الابل والغنم ‥ انه يخدع ضعاف العقول ‥ »

ويبدو انه لم يدرك أن مثل هذا الكلام قد يسيء الى الزعيم ، غير أنه كان يقصد شيئا غير ذلك ، كان يريد الحط من قدرى ومن قدر الدين الذى أتحدث عنه قلت فى هدوء :

ـ « السهولة ليست عيبا والله يخاطب البشر جميعا بصرف النظر عن تفاوت قدراتهم العقلية :

البساطة ميزة وليست عيبا •• لذا آمن العبيد والسادة بمحمد، وتبعه كبار الشعراء والحكماء ، والقادة والجنود •• لان كلماته الصادقة استطاعت أن تدخل كل قلب •• »

ـ « ما معنى كلمة الله ؟؟ »

ـ « خالق الكون بمن فيه وما فيه »

ـ « أليس له ولد ؟؟ »

ـ « الكل سواسية •• البشر جميعا سواء •• أمام الله •• وهو الواحد الاحد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد •• »

تململ الزعيم فى جلسته وقال :

ـ « لماذا يكره النصارى نبيكم ؟؟ »

ـ « أما نحن فنؤمن بنبيهم •• »

قال وقد ازدادت دهشته :

ـ « أمرك عجيب •• »

ـ « يقول القرآن : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله •• »

تربع الزعيم وأعطانى أذنا صاغية وقال :

ـ « ما الفرق اذن بينكم وبينهم ؟؟ »

ـ « القرآن هو الكلمة الاخيرة الى الناس ، ومحمد (ص) خاتم الرسل ، والمسلم لا يكمل اسلامه الا اذا آمن بجميع الانبياء والرسل

والكتب المنزلة ٠٠ »

تمتم الزعيم قائلا :

ـ « هذا عجيب ٠٠ »

هب « توم » واقفا وقال :

ـ « ليس فى الامكان السكوت على هذا الطعن الخفى فى دينى، لقد جئتم لتثيروا فى الارض هنا الفساد والفتن والاضطراب، والزعيم لن يخدع بكلماتكم المعسولة ٠٠ أنا هنا أنشر العلم ، وأعالج المرضى، وأحمل لواء المحبة والتسامح ٠٠ أما أنتم فقد جئتم تتاجرون بالكلمات ٠٠ تريد سيطرة الشمال النيجيرى على الايبو الاحرار ٠٠ تريدون استغلالهم ٠٠ أنتم أذناب أحمدو بيللو ٠٠ »

لم يعلق الزعيم بكلمة ولكنى قلت :

ـ « أنت تخلط أمورا كثيرة ٠٠ وتحاول أن تثير الغبار لتطمس الحقيقة ٠٠٠ الهوسا والايبو اخوة ٠٠ ونيجيريا دولة واحدة ٠٠ والزعيم يعرف جيدا من هم المستغلون ومثيرو الفتن ٠٠ »

ثم قمت وقلت :

ـ « طاب مساؤك يا سيدى الزعيم ٠٠

طاب مساؤك أيها الاب توم ٠٠ »

وعدت الى بيت الضيافة أنا وعبد الرحيم ، كانت رأسى يثقل عليها الصداع ، وشعرت بأنها تكاد تلتهب ، ولامست وجهى نسمات الجو الرطبة ، وهمست :

ـ « أعتقد أننا لم نخسر الجولة يا عبد الرحيم ٠٠ »

ـ « انها مهمة شاقة على أية حال ٠٠ »

ـ « الاب توم كان يوشك أن يصرعنى ٠٠ »

ـ « انه لن يكف عن التدبير ، وأرى أن نرحل بأسرع وقت ممكـــن ·· »

ـ « أما أنا فتستهوينى هذه الصراعات ·· أشعر بلذة كبرى ، وأنا أصارع الفســـاد والضلال ·· أشعر أننى اقترب اكثـــر من اللـــه ·· »

* *

٨

كنا نتحرك فى أنحاء القرية ، ونمتزج بأهلها ، ونؤدى شعائرنا الدينية بحرية تامة ، لا شك أننا كنا محط الانظار ، فعندما كنا نذهب الى الغابة لنصطاد أو لنقطف الثمار ، كان رجال الايبو ، وبعض النسوة ، يحيطون بنا ، وكان أطفالهم يحاولون تقليدنا وهم عراة بطريقة بدائية مضحكة ، وكانت الاسئلة الكثيرة تتناثر من حولنا ، كنت أطلق السهام وأنا أقول لاحد رجال الايبو :

ـ « لبّ عبادتنا التوحيد »

ـ « وماذا يعنى التوحيد ؟؟ »

ـ « ألا نعبد الا الله ٠٠ »

ـ « وباقى الاشياء التى نعبدها ٠٠ »

ـ « كلها الى زوال ٠٠ البشر أيضا الى زوال ، والله وحده هو الخالق الحى الباقى ٠٠ »

ورد رجل الايبو معلقا :

ـ « ان الاشياء التى نعبدها انما هى طريق الى الله ٠٠ لا نعبدها لذاتها ٠٠ »

ـ « أنتم تخافون مظاهر الطبيعة ، ولهـذا عبدتموهـا ٠٠ والخوف نقيض التوحيد ٠٠ »

يقول رجل الايبو فى دهشة :

ـ « ماذا تعنى ؟؟ »

ـ أعنى أنه اذا خفت الحاكم فقد عبدته ، أو أديت له مـا يمكن

ان تؤديه نحو الخالق ، واذا خفت الرعد سجدت له ، والسجود لغير الله صغار ‥ » الله فى ديننا لا يحتاج الى وسطاء ‥ »

ويتحمس رجل الايبو قائلا ، وانا أطلق السهم :

ـ « أنخاطب الله مباشرة ؟؟ »

ـ « ولم لا ؟؟

ـ « لكننى لا أراه ‥ »

ـ « هو يراك ‥ هو قريب منك ‥ كل شيء فيك منه واليه ‥ أنت تحرك يديك وساقيك بارادته ، نبضات قلبك بين أصابعه ‥ العبودية له وحده ‥ عندما تخلص العبودية لله وحده تشعر بالتحرر الكامل ‥

ويهز الايبو رأسه فى دهشة :

ـ « اهذا هو التوحيد ؟؟ »

ـ « نعم ‥ »

ـ « ومحمد ؟؟ هل هو رمز للاله ‥ أم ابن له ؟؟ »

ألقيت بالسهام جانبا وقلت :

ـ « محمد عبد الله ورسوله ‥ محمد بشر ‥ اختصه الله بحمل كلماته الى الناس ‥

ـ « هو مثلنا اذن ‥ »

ـ « نعم بشـر ‥ »

ـ « أيحب السود ؟؟ »

ضحكت فى حب وقلت :

ـ « كان يقول ما معناه انه لا فضل لابيض على أسود الا بالتقوى ‥ »

ـ « هل هذا حقيقى ‥ »

ـ كان من صحابته بلال الحبشى ‥ وصهيب الرومى ‥

وسلمان الفارسى .. الجميع الخوة .. ميزان التفوق العمل الصالح ... »

– « هذا شيء ما سمعنا به قط ... »

– « وكان يقول عن ابنته .. لو أن فاطمة سرقت لقطع محمد يدها .. »

وأخذت أحدث رفقاء الايبو عن سلوك المستعمرين أيام الغزو فكيف كانوا يسوقوننا عبيدا ، ويعاملوننا كحيوانات ، ويهدون انسانيتنا ، ثم أخذت أحدثهم عن فتوحات محمد وأصحابه ، وكيف تحول الغالب والمغلوب الى اخوة يجمعهم الاسلام ، فلا سادة يحتقرون المساكين ، ولا استغلال للعاملين ، وكانوا يطربون للقصص التى أرويها عن الغزاة والفاتحين ، وعن الخلفاء الراشدين ، ويقفون صامتين مشدوهين لروعة ما يسمعون ، وكنت أعلم أن كلماتى تنطلق فى كل مكان ، ويتناولها الرواة بين الاكواخ ، وعلى سفح الجبل ، وفى قلب الغابات المظلمة ، كما كانت تصل أول بأول الى زعيم القبيلة ..أما الاب « توم » فقد انزوى فى كنيسته يطيل التراتيل والصلوات ، ويزيد عدد المواعظ ، وحوله عدد قليل ممن آمنوا به من رجال الايبو ، ولعل هؤلاء الرجال كانوا ينقلون الى مسامعه كل ما يجرى فى القرية ..

وكنت أشعر أن الامور تمضى على ما يرام ، وان الجو قد تهيأ تماما ان لم يكن للايمان الكامل بدعوتنا ، فليكن للرضاء عن سلوكنا والسماح لنا بأن نتكلم كيف شئنا ، بل كانت الاذان تتلهف بشدة لكل ما نقول ..

كان قد مضى علينا أسبوع كامل ، ونحن ننعم بهذا الجو الروحانى المثالى ، وكنا نلتقى خلال هذا الاسبوع بزعيم القبيلة الذكى المتفتح العقل ، وقد لاحظ الجميع أن الزعيم أخذ يهمل شعائره

الدينية القديمة ، بل كان يخجل اذا رأى احدا يؤديها وان لم يتدخل لوقفها ، كما لاحظنا ان علاقته بالاب توم لم تعد تلك العلاقة الوثيقة القوية ، بل تحولت الى نوع من المجاملة لرجل قضى بينهم أكثر من عامين ، يداويهم ويدرس لهم ..

وفوجئنا ذات مساء بالاب « توم » يأتى لزيارتنا ، كان يبدو عليه الضيق والكرب ، لكنه كان يحاول أن يتماسك ويظهر بمظهر القوى الواثق بنفسه ، والذى لا يبغى سوى السلام والمصالحة وجلس الى جوارى قائلا :

ـ « ان ارض الله واسعة .. »

ـ « هذا حـــق .. »

تنحنح وقال :

ـ « وهناك مناطق كثيرة أخرى فى الشرق والغرب .. تستطيع أن تذهب اليها .. »

قلت فى هدوء :

ـ « نحن لا نقتسم الارض ، ولا نساوم على البشر .. »

ـ « ما قصدت ذلك يا صديقى .. »

« نحن نتحرك بين شعب نيجيريا بمنتهى الحرية .. »

ـ « يا صديقى قد يسىء هذا الى مصلحة الناس هنا ... »

ـ « نحن لا نملك غير الكلمات .. »

ـ « لكن الناس هنا سذج وبسطاء .. قد تتحول الكلمات لديهم الى سهام ورصاص .. »

قلت فى دهشة :

ـ « لماذا ؟؟ »

ـ « من أجل أنك تتدخل فى شؤنهم .. »

ـ « ما قصدنا ذلك .. نحن نتكلم فمن شاء آمن ومن شـــاء

انصرف عنا لا نعاقب أحدا ، ولا نعطى مكافأة مادية لاحد ••• نحن عابرو سبيل ليس فى حوذتنا غير قليل من الطعام ، وقدرة على السير فى الطريق •• »

وجدت عبد الرحيم يقبل نحونا بوجهه الاسمر الطويل ويقول:

ــ « أيها الاب •• ألم تفكر يوما أننا قد نكون على حق ؟؟ »

قال فى اصرار :

ــ « أنا مسيحى وأعرف الحق من وجهة نظرى الخاصة •• »

ــ « قد تكون وجهة نظر الآخرين أصوب ايها الاب توم »

نظر الى عبد الرحيم فى اشمئزاز وقال :

ــ « الفارق الحضارى بينى وبينكم يمتد الى قرون •• »

ثم استطرد فى برود :

ــ « لقد جئنا هنا لنعلمكم كل شىء •• الصناعة والزراعة والجغرافيا •• والدين •• نحن أساتذة •• تلك هى الحقيقة •• »

تدخلت قائلا :

ــ « من الشرق ظهر المسيح •• وفى الجزيرة العربية ولد محمد •• وفى مصر ولد موسى •• زادكم عندنا •• ومع ذلك فان البحث عن الحقيقة قضية أخرى لا تتعلق بقوتكم •• هذا ما أفهمه••»

ودار الحديث شرقا وغربا ، واحتدم الجدل ، وأخيرا نظـر الاب توم نظرته الخبيثة التى لا تتفق والمسوح التى يلبسها وقال :

ــ « انتم تلعبون بالنار •• »

ــ « الافريقيون يعرفون جيدا ما يضرهـم وما ينفعهـم •• »

ضحك ضحكة ساخرة وقال :

ــ « سنـــرى »

وعندما انصرف عبد الرحيم :

ـ « كان الرجل يهددنا .. »

ـ « ان زعيم القبيلة لو علم بكل ما جرى لطرده على الفور .. »

قال عبد الرحيم معترضا :

ـ « ليس بهذه البساطة .. »

ـ « كل ما أؤمن به ان الطريق الى الله محفوف بالمكارة .. »

وتذكرت شيخي « عبد الله » شيخ الطريقة القادرية الذى أومن بكلماته أعمق الايمان ، وتذكرت نصائحه لى ، يا الهى .. ها هى .. « جاماكا » تطل على خيالى بوجهها الاسمر الفاتن ، أتراها ستسعد عندما يخبرها « نور » أننا نقوم الآن بواجب الدعوة الى الله فى قبائل الايبو ، أم أنها ستثور وتتعصب لما آمنت به ؟؟ كلما تذكرت أنها هنا عاشت ، ولعبت فى الغابات العذراء ، والتقت بالرهبان والراهبات .. أشعر بحنين غريب لهذه الأرض .. جاماكا ليست غريبة عني تماما .. تفصلنى عنها بعض الافكار والسلوك .. هذا أمر بسيط .. لكن كيف ؟ أليس الفارق بيننا بسيطا على أية حال .. الافكار والسلوك حيز ضخم ملىء بالصخور والاشواك والافاعى ..

لا يصح أن أخدع نفسى .. لكنى للاسف أشعر أننى احبها .. أتذكر كلماتها .. نظراتها فى دار السينما .. وزيارتها الغريبة لي فى البيت .. الصدف الصغيرة تصنع أحداثا ضخمة ..

* *

كنا نتجول فى الغابة ظهر اليوم التالى ، لا شك أن الحر كان شديدا ، ومع ذلك فقد كان من المستحيل ان اتخفف من ثيابى وأمشى عاريا أو حافيا كما يفعل الايبو .. وصرخ عبد الرحيم فجأة وهو ينبطح على الارض :

ـ « خذ حذرك ·· »

وبحركة ارادية انبطحت الى جـواره خلف شجرة ضخمـة ، أخذتني المباغتة ، وبعد لحظات رأيت عبد الرحيم يقترب منـــى وهو يرتجف :

ـ « لقد استطاع الوغد أن يصيبك ·· »

وامتدت يد عبد الرحيم لتنتزع سهما قد أصاب كتفى اليسرى من الخلف ·· وعندها شعرت بألم بالــغ ، لقد خيل الي عندمـا صرخ عبد الرحيم فى البداية أن شيئا ما أصابنى فى كتفى ، لكنى ظننت أن بعض الاشواك قد غرزت فى كتفى أثناء انبطاحى ، وما أن فارقتنى الدهشة حتى أصبحت مدركا تماما لما أعانيه من آلام ·· وقال عبد الرحيم وهو يضمد جرحى بمنديل صغير :

ـ « لو أصاب قلبك لقضى نحبك فى الحال ·· »

ابتسمت برغم الالم ··

وقال عبد الرحيم :

ـ « يخيل الى أنني أعرف الجانى ·· »

قلـــت :

ـ « لنسرع لآن ·· مخافة أن تكون هناك محاولة أخرى ·· »

ـ « الجبان لا يضرب الا مرة واحدة ويهرب ·· أتذكر ذلـــك الرجل الذى أتى الينا فى البداية وطلب منا أن نرحل ؟؟ »

ـ « نعم أتذكره ··· »

ورآنا الناس عائدين ، وبلغ الخبر مسامع الزعيم ، ووفد الى دار الضيافة خلق كثير خلف الزعيم الذى بدا غاضبا محمر العينين ·· وعندما أخبره عبد الرحيم بما رأى ، تدخلت قائلا :

ـ « لا يصح أن نجزم ما دمنا غير متأكدين ·· »

فى المساء كنا لدى الزعيم ، ورأينا الجانى مقيدا بالحبال فــى

ركن قرب النار المشتعلة ، لكننا لم نر أثرا للاب « توم »

وجلسنا صامتين حول الزعيم الذى غمغم بعد فترة :

ـ « الخائن يقتل .. »

قلت فى ضراعة :

ـ « أنا صاحب الحق ، وقد عفوت عنه .. يقول الله فى كتابه العزيز » ومن عفا وأصلح فأجره على الله »

وقال عبد الرحيم وهو يحنى رأسه :

ـ « ليس هو الفاعل الحقيقى .. انه ضحية .. مظلوم .. »

وأجاب الزعيم بكلمات قصار فهمنا منها كل شىء :

ـ « يا ضيوفنا الاجلاء .. لا بد أن يرحل الاب توم عن ديارنا .. »

لقد جدت أحداث كبيرة لا شك ، أن طرد « توم » ليس بالامر الهين ، ثم ان قتل الجانى اذا أصر الزعيم على ذلك ـ سوف يجعل عندأهله وذويه ذكرى سيئة مشبعة بالدم ، وأنا لم آت لهذه الديار ، كى أورث الاحقاد ، وأخلف ورائى الاحزان ، ولن نكسب كثيرا من موت رجل خدعه الحقد الاستعمارى الذى لا يرحم ...

واقتربت من الزعيم مرتكزا على ركبتى وتناولت يديه وضممتها الى صدرى وهتفت فى توسل :

ـ « بحق ابائك وأجدادك العظام .. أن تعفو عنه .. وسنرحل على الفور .. »

ابتسم الزعيم ، ووجدت عبد الرحيم يقدم على خطوة غريبة أثارت فى نفسى الاضطراب ، لكنها جاءت ناجحة للغاية ، لقد قبل رأس الزعيم ولامس عقود الخرز حول عنقه فى رقة ، ثم اتجه وسط الصمت الضارب ، وذهب الى الجانى المقيد وفك وثاقه ... وعاد قرب النار ، وأخذ يرقص رقصاتـه الافريقية ويغنى أغنية الايبـو

المحببة ·· وانفرجت أسارير الزعيم ·· وفاض وجهه بالسعادة والرضى ···

وبعد أن أنتهت الاغنية ·· أشار بيده فصمت الجميع كان خلق كثير من القرية قد اجتمع فى هذه الساعة الحاسمة ثم وقف الزعيم وقال بصوت أجش :

ـ « أيها الابناء لقد قررت أن أعتنق دين هذين الرجلين ·· »

وساد السكون ، ثم التفت صوبى قائلا :

ـ « قم ولقنى الكلمات المقدسة ·· »

وفى خضم هذا السكون العامر بالدهشة ، وقفت ألقنه الشهادتين باللغة العربية ·· وما أن انتهيت وقد سال جسدى عرقا غزيرا حتى صاح الزعيم بالحاضرين :

ـ « قفوا ··· ورددوا الكلمات المقدسة ·· »

وعندما هدر الحشد بالشهادتين ظننت أننى فى حلم ، انه شىء يشبه الاسطورة ، وراء ذلك كله سر الهى لا يمكن كشفه ، نفس السر الذى يكمن وراء اسلام الملايين على أيدى التجار فى الهند والصين وشواطىء البحار البعيدة والجزر النائية ··

وعلمنا فى اليوم التالى قبل رحيلنا أن فئة قليلة كانت تنصرت من قبل على يدى « توم » أصرت على البقاء على تنصرها ··

وفكر الزعيم فى الزامها بالدين الاسلامى ، لكنى قلت :

ـ « ايها الزعيم المبجل ·· لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ·· فليسلم من شاء وليبق على دينه من شاء ، هذه أوامر ديننا ·· »

قال فى استغراب :

ـ « أهو ذاك ·· »

ـ « نعم ·· »

ـ « أمركم مجـاب •• »

واتجهت قافلتنا الصغيرة ، السيارة اللاندروفر وعبد الرحيم وانا صوب الشرق •• كانت أحداث الامـس تبـدو كمعجزة مـــن المعجزات ••

وقال عبد الرحيم :

ـ « على مولانا أحمدو بيللو » أن يعجل بارسال أحد العلماء ومدرس الى هنا •• هذا أمر ضرورى •• »

قلت فى شرود :

ـ « قد آتى أنا بنفسى لاعيش فى هذه الديار الى الابد ••• »

سامحنى الله ، فقد كنت فى هذه اللحظات أتخيل « جاماكا » وقد أسلمت وتزوجتني وأنت معي لنرى هؤلاء الشرفاء الفقراء فى تلك المنطقة النائية على حافة الغابة العذراء •

٩

كنت اساءل نفسى في الطريق الى الشرق عن سر ذلك النجاح المذهل أو تلك المعجزة ؟ ولم يكن هناك من تفسير لدى سوى ان النجاح على قدر صدق النية ، كانت تحركنى طاقة هائلة ٠٠ طاقة روحية تحثنى دائما على العمل ، ولعل أكبر فلاسفة المسلمين فى هذا العصر لم يكن ليقدر على أن يحقق مثل هذا النجاح ، ان الحجة والمنطق وحدهما غير كافيين فى هذا المضمار ، ومع ذلك فليس لي سوى ان أحمد الله وأسجد له شكرا ، وعبد الرحيم ليس داعية محترفا ، انه مجرد انسان مخلص ، على قدر بسيط من الثقافة ، تعلم ما تعلمه عن الاسلام فى حلقات الذكر والاستغفار ، وتلقفه من فوق المنابر أو دروس المساجد ، ومع ذلك فقد كان يؤدى دوره الى جوارى بتوفيق الله ، كان كثيرا ما يدلي بالرأي الصادق والتعليق الحكيم ، أو يأتى عملا يكون وراءه خير كثير ، كلما تذكرت أغنية الايبو ، وأثرها فى النفوس ، وتقريبها بيننا وبين القوم ، أضحك فى سعادة وأشكر الله لم أتضايق كثيرا عندما عرجنا على قبيلة صغيرة تبعد عن القبيلة الاولى بخمس ساعات سيرا بالسيارة فى الاحراش ، أقول لم أتضايق عندما رفضنا رجالها ، وأبى زعيمها أن يستقبلنا ، وعلمنا أنه يعيش هو وقبيلته فى شبه عزلة تامة ، ولا يسمح لاحد بارتياد قريته ، بما فى ذلك المبشرين والتجار ، هناك فئة من الناس يأنسون للعزلة ، ويخافون الانفتاح على بقية العالم

.... ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، وهكذا المقاصد مرة تصيب ومرة تخطـــيء .

وأنا راض بقضاء الله ، صابر لمشيئته ..

وبعد يوم من رحيلنا وكنا قد إنحدرنا صوب سفح الجبل الى مكان فيه بحيرة كبيرة ، وعليه أجمات من الاشجار ، شديد الرطوبة، خانق الحرارة ، وأقمنا خيمة صغيرة لنقيم فيها يوما أو نصف يوم نكتشف الجو ، ونعرف الارض التى نتحرك عليها ، وصادفنا بعض رجـــال الايبو ، لكننا لم نكن قـد وضعنـا خطـة بعـد للامتزاج بهم والتحدث اليهم .. الغريب أننا فوجئنا بالاب « توم » ومعه عدد من رجال القبيلة التى كنا قد حققنا فيها نجاحا باهرا ، ووقف الاب ورجاله صوبنا فى دهشة ، همس عبد الرحيم :

ـ « يبدو أن الرجل ينوى عقابنا .. »

ـ « ليس هذا أسلوبه .. انه لا يضرب فى وضح النهار .. »

اقترب الاب « توم » وعلى وجهه ابتسامة غريبة ، فيها معنى التشفى والانتصار والسعادة ، دق قلبى من الرعب وأنا أدقق النظر فى وجهه المقيت ، وقال فى سخرية واضحة :

ـ « ألم تسمعوا الاخبار ؟؟ »

تبادلنا نظرات صامتة أنا وعبد الرحيم ، ان معنا مذيـاعـا صغيرا لكننا لم نفكر طوال رحلتنا أن نبحث عنه أو نستفيد منه .

وسمعت توم يقول :

ـ « كنت واثقا أن تصرفات المسلمين فى الشمال ستجر الوبال والحسرة .. لست أدرى لماذا لا تدعون كل اقليم من أقاليم نيجيريا يستقل بنفسه ؟؟ »

لتكن الهوسا وحدها في الشمال ·· والايبو وحدهم في الشرق ·· واليوروبا في الغرب ·· »

صرخت في ضيق :

ـ « كفى يا مستر توم »

ـ « أنا الاب توم ·· »

ـ « انك تسيء الى ابناء الوطن الواحد ·· وتذكر أنك أتيت لتنشر دينك لا لتخطط لتمزيق الدولة الى دويلات ·· »

قهقه كشيطان ورمى بالخبر الذى انقض كالصاعقة :

ـ « لقد مات أحمدو بيللو »

هتفت أنا وعبد الرحيم في صوت واحد :

ـ « ماذا ؟؟ »

قال في بساطة فظة :

ـ « قتله الثوار من الضباط في الشمال هو وزوجته ·· وبعد أن قتلوهما أحرقوهما بالنار ··· وقتل المئات من الضباط والرجال المسلمون ·· »

دارت بى الارض ، امتلأت عيناى بالدموع ، لكأنما أصابني شلل تام ، سمعت توم وكان صوته يأتي من بعيد :

ـ « قتله الميجور « تشوكوما نزوغو » المدرس بالكلية الحربية ··· أما ايرونسى قائد الجيش فقد زعم انه برىء من الحركة ودعا الضباط المتمردين وعلى رأسهم تشوكوما للاستسلام ·· وأعلن ايرونسى قائد الجيش نفسه حاكما عسكريا على البلاد ···

لقد سقط الشمال ·· وسقط أحمدو بيللو للابد ·· »

صرخت في جنون : « اذهب أيها الملعون » واندفعت صوبه ·· لكنه لم يكن امامى ·· كان قد ذهب بعيدا وهو يقهقه ·· لم أكن أرى أمامى تشوكوما ولا ايرونسى ·· كنت أرى الوجه الاشقر

والرداء الكهنوتي •• الاستعمار والتبشير ومعهما اسرائيل •• هذا الثالوث الرهيب هو الذى قتل سيدى ومولاى أحمدو بيللو

وصاح توم بأعلى صوته :

ـ « الثورة يديرها رجال الايبو •• تذكر جيدا يا عثمان وبقاؤك هنا معناه الموت •• يجب أن ترحلوا فورا •• »

واختفى توم ، وبقيت أنا وعبد الرحيم ننوء بثقل الاحزان القاتلة ، الذكريات الغالية تمر بخاطرى ، الرجل العظيم أحمدو بيللو وما قدمه لدينه وبلاده من خدمات فى سبيل رفع شأنها ، ولم شملها، الآمال الحلوة التى كانت تداعب أفكاره بالنسبة للمستقبل ، صموده فى مواجهة أعداء البلاد •• اصراره على النضال برغم التهديد بالموت •• لقد مات أحمدو بيللو شهيدا •• كان شيخى يقول • إنى أرى فى وجهه سمات الشهيد •• انا لله وانا اليه راجعون ••• ها أنت يا وطنى الغالى تقع بين براثن الاعداء وتغرق يا وطنى فى فتن سوداء كالليل الحالك •• الاخوة يقتتلون ، فيراق الدم البرىء ••• من أجل أن ينتعش اقتصاد الاستعمار ، ويضمن الاستثمار من أجل أن يركع عمالقة الشمال ساجدين تحت ارادة المستعمر •• الحدث الكبير يهز وجدانى ، ويشعل قلبى ،ويلطخ آمالى بالسواد •• لم أعد أستطيع السير •• أنظر من حولى فيخيل الى الآفاق قد ملئت سهاما سامة ، وأن الموت يكمن فى كل اتجاه •• تشوكوما أيها الميجور الملعون ؟؟ كيف سولت لك نفسك أن تفعلها ••• قال أحمدو بيللو ذات يوم ، « لن أعزل ايرونسى •• لن أفصله أو أفصل أى ضابط مسيحى او من الايبو •• انهم اخوتنا •• ولا أريد أن يرمينى أحد بالتعصب عندما أعزل ايرونسى أو غيره من الايبو المسيحيين وأضع مكانه قائدا مسلما ••• ها هم اخوتنا من الايبو يتزعمون التمرد ويقتلون اخوانهم من الضباط المسلمين ، ويصرعون « أحمدو

بيللو » ··· أى كارثة حلت ببلادى الحبيبة ؟؟؟؟
ربت عبد الرحيم على كتفى قائلا :
ـ لتهدأ قليلا ·· »
ـ « هل صح ما زعموا ؟؟ »
ـ « لقد سمعت المذياع ·· أن ما قاله الاب توم صحيح ·· »
ـ « كيف يحدث ذلك ؟ »
ـ « ايرونسى يزعم أنه برىء ، وان المسئولية تقع على تشوكوما والضباط المتمردين الخمسة وكلهم من الايبو ·· »
تنهدت فى حسرة وهمست :
ـ « لا شك أن مدينتنا الآن تحيى فى ظل الرعب والعذاب ··»
ـ « لا بد أن نعود يا عثمان ·· »
ـ « سنرحل على الفور ·· فليصبنا ما يصيبهم ··· ولنحمل من الآلام ما يحملون ·· »
ـ « أجـــل »
ـ « وليست الدعوة يا عبد الرحيم كلمات ونصائح ·· انها تضحيات ·· مات أحمدو بيللو بعد أن ضرب أروع المثل فى الصبر والفـــداء ·· »

وانطلقت بنا السيارة عائدين صوب « لاجوس » العاصمة ، كان البؤس الحزين يوشح الغابات والليل وأصوات الحيوانـات الملتاعة ·· كان يخيل الى أن اسم أحمدو بيللو فى الآفاق كالصدى الخالد الذى لا يموت ، لقد قتلوا الاغنية الشجية على لسان كل رجل وفى نيجيريا الغالية ···
قلت وقد قطعنا ساعات فى الغابات :
ـ « الحق لا يموت ·· »
ـ « الحق باق ·· »

ـ « وأنا أعرف ذلك يا عبد الرحيم لكن عيني تفيضان بالدموع ·· »

ـ « مات عمر بخنجر حاقد ، وسال دم الشهيد عثمان على صفحات كتاب الله ·· ولقى على بن أبى طالب ربه بعد أن امتدت اليه يد الغدر ··· ما معنى أن يموت هؤلاء الصحابة الاتقياء على هذه الصورة ؟؟ يخيل الى أنها أشرف ميتة على وجه الارض ·· الذين يموتون فى ميدان الجهاد لهم عند الله منزلة غالية ·· »

ومسحت دموعى وقلت :

ـ « هم المنتصرون برغم موتهم ·· »

ـ « والحقد يا عثمان لن يطفىء شعلة اليقين ·· »

ـ « ولن يطمس كلمات الله ··· »

وبلغنا لاجوس بعد رحلة مرهقة فى الصباح ·· يا الهى ماذا أرى ؟؟ »

المخدوعون والحمقى من المنتصرين ،والحاقدون من رجال الايبو يرقصون فى الشوارع ويترنمون بالاغانى الحماسية··والصحفيون الاجانب ورجال الجاليات تشرق الفرحة فى أعينهم ويصورون المواكب المخدوعة ·

ـ « ماذا أرى يا عثمان »

هززت رأسى فى ضيق بالغ وقلت :

ـ « الشامتون »

ـ ألا يفهمون أبعاد النكبة ؟ »

ـ « الاعداء الاجانب يصورون الخيانة على أنها بطولة،ويبرزون الانهيار على أنه تحرر وتقدم » صرخ عبد الرحيم وقد احتقن وجهه :

ـ « اللعنة على كل شىء ·· لو أن بى قوة لكنستهم بمدفع رشاش ·· »

ـ « السكارى لا يدرون ما يفعلون •• »

حينما عدنا الى فندق مدام « علية » كانت الصالة صاخبة ، ومدام علية جالسة على الطاولة في اكتئاب وقد أسندت رأسها على قبضتها ، نظرت الى عيني محمرتين وهمست مخافة أن يراها أحد من الاجانب :

ـ « البقية في حياتك •• »

تناولنا المفاتيح دون أن نجيب ••• اليهودى الخبيث يجلس في ركنه المعهود وعيناه تلمعان ، انه ينظر الى في شك ، وبعض الرواد يتحدثون عن الفتنة التي اندلعت في البلاد وعن آثارها المرتقبة بالنسبة للتجارة والاقتصاد وسعر العملة وما يزخر به من أحداث ومفاجآت ، وبعض الواهمين يقسمون الايمان المغلظة كذبا على أنهم كانوا يتوقعون ما حدث ، والبعض الآخر يحاول تحليل الاحداث والبحث عن الاسباب المباشرة •• لم أكن أريد أن أسمع شيئا ، وذهبت ـ برفقتي عبد الرحيم ـ الى غرفتي كنت أريد أنه أجلس بعيدا عن الضجيج والاضواء •••

١٠

وعدت أخيرا الى مدينتى التى يوشحها الاسى العميق، ويمطرها الحزن ، وتعصف بها موجات الوجوم عدت الى شمال نيجيريا ، حيث الرجال العمالقة يمضون منكسي الرؤوس ، كسيرى النظرات ، والغيظ المكتوم يطل فى المحاجر ، كان تشوكوما وضباطه المتمردون قد استسلموا لقائد الجيش « ايرونسى » فى حركة مسرحية بارعة ، يحاول فيها القائد أن يبرىء نفسه مما جرى وكان معروفا لدى الجميع أن هذا القائد ضالع فى المؤامرة التى أوذت بحياة الشهيد أحمدو بيللو وغيره من الشهداء الاطهار أخذتهم ضربة المتعضبين والعملاء على حين غرة ..

وهذا هو بيتى جامد لا حياة فيه ، الحياة أصبحت مرة المذاق منفرة ، والصحاب متفرقون كل يوجس خيفة من الاخرين ، وأى تجمع معناه أن تعرض نفسك ومن معك للسجن أو الموت أو الشبهات ، البعض فروا الى أماكن نائية وآخرون أغلقوا متاجرهم ، والحمقى من الايبو يتطاولون فى البنيان ويمرحون ، وكأن كل شىء قد دان لهم لهم ، أصبح السلاح هو سيد الموقف ، والاجانب الذين يكمنون وراء هذه المؤامرات يلعبون بمصاير الوطن ، ويرسمون الطريق الى الهاوية والانهيار ، لكأنما قد سكنت المدينة أرواح شريرة ، وأخذت أسمع عن حكايات كثيرة كلها تصور ألوان البشاعة والانتقام ، لكم تخفيني

سطور الدم القانى ، ان السنين الطويلة لا تمحوها من القلوب ، ولا تستطيع صفحات التاريخ أن تغلفها ، الدم المراق غدرا وظلما يظل يصرخ دائما ، وصراخه يورث القلق والأرق ، ويحرض على الثأر والتدمير ، ولا يكبحه كابح ، أو يخرسه توسل ، لقد ذاقت البلاد طعم الدماء وتجربة الانقلابات ، ودوريات العسكر يجوبون الشوارع، وينتشرون فى المدن وفى مسارب الصحراء ، والظلم لا ينجب الا الكراهية ، ولا ينبت الا الخوف ، والخوف رذيلة فظيعة ..

لما دخلت على شيخى فى بيته الواسع المتواضع ، كان يجلس هو وحفنة من الدراويش يذكرون الله ، ألقيت السلام ، ثم اقتربت منه ولثمت يده الكريمة النظيفة الباردة ، وخيل الى أن أهدابه تبللها الدموع ، وبعد فترة قال الشيخ :

ــ « من قال أن الطوفان أعمى ؟؟ للطوفان عيون يلتقط بها ما يشاء ليدمره أو يغرقه .. وما انطلق الطوفان الا بارادة الله .. واذا بدا الطوفان قاسيا ظالما عشوائيا ، فتذكروا حكمة الله الكامنة خلف الاشياء .. واذا هلك الشيطان يا أبنائى فلن يكون هناك صراع .. ليس القاهر هو الطوفان ، ولكن القاهر هو الله .. أذكروا ذلك جيدا .. لا تقولوا انتهى أمر أحمدو بيللو .. ولكن قولوا أراد الله لقاءه ..فلبى الشهيد النداء .. نحن لا نسمع هتافه وهو سائر فى الطريق اليه .. لكنه لا شك كان يقول : مرحى .. مرحى .. هذا يوم اللقاء العظيم .. »

واغرورقت الاعين بالدموع ثم انسكبت حتى بللت اللحى ، وشهق البعض باكيا .. وصاح شيخنا نافرا :

ــ « لا تنتحبوا .. بل رددوا معى ، العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » رددوها ألف مرة .. » وما أن انتهينا من الورد المطلوب، قلت لشيخى :

ــ « وماذا نفعل ؟؟ »
قـــال :
ــ « سل قلبك »
قلت ــ « في القلب ترتجف أمنيــات كثيرة ولا تعرف كيف تنبثــق »
ــ « قل كلمة الحق »
ــ « انهم يقيمون في طريقها السدود يا شيخي الجليل ‥ »
ــ « قلها ولا تخف ‥ »
ــ « الموت والسجن يترصدان لنا »
ــ « هذا هو الجهاد‥ بعضنا سوف يفلسف ضعفه ، ويتقاعس بحجة أن الظروف لا تسمح ، والكفاح قد يكون حماقة ‥ لا تصدقوا هذه الكلمات ، لانها الموت بعينه ‥ الحق لا ينتصر الا بالمجاهدة المستمرة ‥ لقد تعلمنا أن الموت ليس خاتمة المطاف ‥‥

الموت مرحلة الى الدار الثانية ‥ وهى أروع ‥ فكيف نحجم عن النعيم المقيم ؟؟

هل تذكرون ؟؟ أن عصا واحدة قهرت جيشا يعد بالآلاف ‥‥ تلك عصا موسى وجيش فرعون الجرار ‥ والشهداء هم النخبة الممتازة التى يختارها الله ‥ سأراكم غدا تسيرون فى الطرقات‥ وتعلنون ‥‥ كلمة الحق جماعات وفرادى ‥ ولا ترهبوا الحديد والنار ‥ عزيمة المؤمن أقوى من الحديد ، وأقــوى مــن النار ‥ انطلقوا يغفر الله لكم ‥ »

وبحثت عن صديقى « نور » فى كل الانحاء ، لكنى فشلت فى العثور عليه ، المتطلعون لا مكان لهم ، لا يرتبطون بموعد أو بمكان ، انهم حيث تتوفر لقمة العيش ، وحيث يوجد المأوى ، وبرغم صرامة الحكم العسكرى ، وقســوة ايرونسى وتعصبه الا اننى كنت أتكلم

وأقول ما أشاء ، ومما يؤسف له ان بعض الاخوة من الايبو كانوا يمشون في خيلاء وكأنهم طبقة النبلاء المتميزة ..

وكان لا بد أن تتحول كلماتنا واحتجاجاتنا الى حركة منظمة لتقتلع الانحراف ، وتعود الحياة الطبيعية الى وطنـي العظيم ، ان ساحل العبيد القديم لا يمكن أن تعود اليه العبودية مرة أخرى ، ولا يمكن أن يفرض عليه الرضوخ والاستسلام ..

وفوجئت ذات مساء بمجيء «نور » .. هو هو لم يتغير الا قليلا آلمني أشد الالم أنه لا يكترث بالاحداث الضخمة التى تهز البلاد هزا عنيفا ، وكان يقول :

ـ أنا لا أفكر الا فى العثور على المال .. أعنى الحصول على وظيفة فى أى مجال .. »

ـ « حيثما يوجد العدل توجد فرصة العمل .. »

هز رأسه في سخرية وقال :

ـ « لا اظن أن في الدنيا عدلا .. ولن يكون »

ـ « أنت يا نور تستمد أحكامـك القاسية من خـلال أزمتك الخاصة .. »

ـ « ليكن .. فانا كل شيء .. ماذا يهمنى لو حظى العالم كله بالسعادة وبقيت تعسا وحدي .. كلنا انانيون .. »

قلت في شيء من الاستياء :

ـ « ان موت الزعيم قد اجهض التقدم الذى كنا ننشده ..»

علق دون اكتراث :

ـ « انه يستحق .. »

ذهلت لهاتين الكلمتين وصرخت فى حدة :

ـ « ماذا تقول يا نور ؟؟ هل جننت ؟؟ »

قال متلعثما :

ـ « لا تغضب ٠٠ كان طيبا أكثر من اللازم ٠٠ لو كان رجل سياسة حقا لعلم أننا نعيش فى عالم كله ذئاب ٠٠ »

أردفت فى أسى :

ـ « كان رحمه الله أبا كبير القلب ٠٠ أفسح قلبه لكل أبناء نيجيريا ٠٠ أعتبرهم أسرة واحدة فى كيان واحد ٠٠ وكان يعلم جيدا أن أبناء الاسرة الواحدة فيهم السوى والشاذ ، والصالح والطالح٠٠٠ لكنه كان أبا بكل معنى الكلمة ٠٠

وتشعب بنا الحديث هنا وهناك ، وكان نور يحاول دائما أن يفلت كلما تحدثنا عن السياسة وأوضاع البلاد ، وأخيرا همس فى أذنى :

ـ « يا صديقى ٠٠ دع الامور تمضى ٠٠ وفكر فى نفسك ٠٠ »

ـ « أنا لا أخاف الا الله يا نور ٠٠ »

هتف فى حدة :

ـ « أيها الاحمق ، اذا سقطت فستدوسك النعال ولن يبكى عليك أحد ٠٠ لقد مزقوا أحمد بيللو وزوجته اربا اربا وأحرقوهما بالنار ٠٠ وها هو تشوكوما يعيش دون أن يمسه أحد ٠٠ الكبار هنا كالدمى التى تحرك خيوطها أيد خفية فوق مسرح للعرائس ٠٠ أفق الى نفسك ٠٠ »

موجة من اليأس تجتاح الناس فى كل مكان ، هذا ما يبدو للناظر، لكن الحقيقة غير ذلك، ان عنف الضربة يوحى دائما بالانتظار والترقب ، لكن اليأس لن يكون ٠٠ هذا ما أعتقده ٠٠

وذات مساء همس « نور » فى أذنى :

ـ « انها تبعث اليك بتحياتها ٠٠ »

ـ « من ؟؟ »

ضحك ملء شدقيه وقال :

ـ « الامبراطورة ·· »

أدركت أنه يعنى « جاماكا » ، وذكر جاماكا هذه المرة يثير فى نفسى الآلام ، أليست من الايبو ؟؟ وبنو قومها وقعوا فريسة فى يد المخطط الاستعمارى الصهيونى ليعبثوا بأمن البلاد وحرمتها ··

ـ « لا تذكر اسمها أمامى »

هز كتفيه فى سخرية وقال :

ـ « وما ذنبها ؟؟ »

ـ « أنا لا تربطنى بها أدنى رابطة »

ابتسم وهو يرمقنى بنظرات ذات معنى وقال :

ـ « تصور أنها تعانى من الالم من أجلك ·· فهى تعلم أن ما حدث سوف يكون سيء الاثر عليك ·· ، هى تصلى من أجلك ·· »

قلت : ـ « لا شك أن لها نفوذا كبيرا الآن »

ـ « وأي نفوذ يا صديقي ·· لقد صافحها ايرونسى بنفسه يوم زيارته للمستشفى حينما كان يجامل الجرحى ·· »

وهتفت فى غيظ :

ـ « كنت أعتقد دائما أن طراز حياتها لن يجعل منها أنثى طيبة محترمة ·· »

ـ « الغريب أنها تذوب شوقا لرؤياك لولا أنك أسأت اليها »

لوحت بيدى فى غضب :

ـ « لا أريد أن أراها ·· »

ـ « تستطيع أن تحل لك كثيرا من المعضلات ·· »

ـ « أعوذ بالله ·· أنا لا أعتمد الا على الله ·· »

وأخبرنى أحد معارفى فى اليوم التالى أن الشبهات تحوم حول صديقى « نور » وان هناك شكا بأنه يتعاون مع السلطات الجديدة ويشى بالشرفاء من أبناء المدينة ، كان لهذا الخبر وقع الصاعقة علي

نفسى ، ان نور مهما انحرف وعبث فلن يسقط فى هذا الشـرك القذر ، وفكرت فى الامر مليا ، ووصلت فى النهاية الى أن مثل هذه الظروف القاتمة تصنع الشكوك ، وتثير الريب ، وتوقع الكثير من الناس فى البلبلة وتقضى على الثقة بين الاحباء ، والا فكيف يكون الصديق فخا للصديق ؟؟ هو فقير ٠٠ وثائر على الاوضـــاع ٠٠ ومتعطل تعصف به أعاصير الضيق والتمرد ، لكنه لا يمكن أن يبيع نفسه فى هذه السوق الشائنة ٠٠ وقررت أن أناقشه الامر فى أقرب فرصة ٠٠ غير أن هذه الفرصة لم تتح لى ، فقد سمعت فى المســاء طارقا يدق بابى ، وما أن فتحت الباب حتى وجدت شرذمة من العسكر يرأسهم ضابط من الايبو ، وما أن رأونى حتى أمسكوا بى ووضعوا الاغلال فى يدى ، وانتشر بعضهم فى انحاء البيت يجوسون ويجمعون الاوراق ، ويقلبون الفراش ، ويفتحون الخزائن بحثا عن السلاح٠٠

كانت هذه أول مرة انزل فيها ضيفا على أحد السجون ٠٠٠

١١

لم يراودنى أدنى ندم أو خوف بالنسبة لما كنت أؤمن ، ودخلت السجن شامخ الرأس لا أكترث لما قد أتعرض له من آلام ، الشيء الوحيد الذى ضايقنى هو اننى لم أستطع أن أقوم بدور فعال ازاء المحنة ، فقد كان الوقت ضيقا ، وكان الناس يعانون من الارتباك واثار المباغتة المحزنة ، وكان السجن يغص بعدد كبير من الرجال أغلبهم من الضباط والعسكر وعلماء الدين وكتاب الصحف والمؤلفين .. يبدو أن أية محنة يكون وقودها دائما من صنفين رئيسيين هما الشباب وحملة الاقلام ، الشباب بصفائهم وحماسهم ونقائهم العقائدى ، والكتاب بما يحررون من آراء ، وبما يجنحون اليه من نقد ومعارضة ، ولا يكاد الكاتب يفلت من قبضة الطغيان الا اذا باع نفسه للسلطان ، وجعل من فكره وأدبه عبيدا مسخرين له وشعرت بقدر غير قليل من السعادة وأنا وسط هذه المجموعة من الرجال الذين رفضوا الانحراف ، وأعلنوا رفضهم فى قوة ، أنا لا أنكر أن فيهم الكثيرين من ذوى الاتجاهات والمذاهب المتباينة، ولكنهم جميعا يلتقون تحت هدف واحد ، الا وهو النهوض ببلادهم فى ظل الحرية والوحدة والعدالة ، قد تختلف صورة العدالة ، وقد يضع بعضهم للحرية مواصفات خاصة ، لكنهم لا يقصدون سوى الخير لوطنهم ، أمر آخر وهو أن غالبية الموجودين ممن يؤمنون بزعامة الشهيد أحمدو بيللو

وصدق نواياه ، واخلاص قصده ، ولذا كان السجن مجالا لدراسات مستفيضة عن أوضاع الوطن السياسية والاقتصادية ، وعن الاعداء الذين يتربصون به الدوائر ، وعن تصور الوضع الذى سيكون عليه المستقبل ·· لكن الدماء التى أريقت فى شوارع المدن والقرى فى نيجيريا ، وخاصة ضد المنتمين لقبائل « الهوسا » خاصة المسلمين عامة ـ وهم الاغلبية الساحقة فى دولتنا الاتحادية ـ تلك الدماء كانت تملأ قلوب الكثيرين بالغيظ والضيق ، وخاصة بين الضباط والعساكر المحبوسين ·· ووجدت أثناء سجنى فرصة طيبة لمزيد من القراءة والعبادة ، غير أن رجلا مثلى تعود الاسفار والتجارة بين شتى أنحاء البلاد لا شك أنه كان ينتابنى من وقت لآخر ضيق بتواجدى فى هذا الحيز الضيق ·· وكان يسمح لبعضنا أحيانا بالزيارة ، ولم يكن يهمنا فى مثل هذه الزيارات سوى جمع الاخبار، وخاصة السياسية منها ، وعقب أية زيارة لاخ من الاخوة المحبوسين ، كنا نحيط به ونتجمهر حوله ونسأله عن المزيد من الانباء ، ونجلس لنحلل هذه الانباء ونضيف عليها ما يشاء خيالنا المتوثب الطامح ، ويخيل الى فى كثير من الاحيان أن البلاد على وشك أن تندلع فيها ثورة مباغتة تقضى على المجرمين ، ولكن الايام تمر ، والصبر يطول، ونحن خلف الاسوار نتململ ··

وابتدأت الانتفاضات فى الخارج على هيئة تجمعات صغيرة كانت الحكومة العسكرية تضربها بشدة ، وأخذ ذلك ينعكس علينا داخل السجن ، اذ بدأ المسئولون يسيئون معاملتنا ، بل ويتعرضون لنا بالضرب والسخرية والقسوة ·· وللاسف كان يشرف على اضطهادنا ضابط من الايبو ليس فى قلبه رحمة ·· وكان التمرد داخل السجن يعنى مخاطرة كبرى قد تقضى علينا جميعا فى مثل هذه الايام الحرجة، أقول ذلك لان بعض السجناء فكروا فى الاصطدام

مع الحراس ، واثارة معركة ، لكن العقلاء من الرجال رفضوا هذه الفكرة بشدة وبينوا أخطارها الماحقة ..

وآلمني جدا أن بعض المواطنين في الخارج كانوا يتعاونون مع سلطات الامن الظالمة ، وذكرت أسماء كثيرة منها « نور » وكان المتحمسون منا يقسمون أغلظ الايمان على الانتقام منهم عندما تتاح الفرصة ويفرج عنهم ، ويتركون هذا السجن الذى أصبح مسرحا للتعذيب والاضطهاد ..

وكنت أتذكر صداقتي « لنور » وأحاول أن أتعمق تصرفاته وسلوكه وخاصة في الايام الاخيرة قبيل سجني ، بل أكد لى بعضهم أنه هو الذى قد وشى بي .. الله وحده يعلم ما أصابنى من غم وحزن ، لم أكن مكتئبا لانه تسبب في سجني ، بل لانه قد انحرف هذا الانحراف الخطير ، ووقع في تلك الخيانة المرذولة ..

لكن ما أعجب الايام !!

فوجئت ذات يوم بنور في السجن .. يا الهى !! ماذا جرى ؟؟

كانت الكدمات تملأ جسمه ، والدماء تنزف من أنفه ، وآثار السياط تبعث في نفسى الاسى ..

ما أظلم الناس حينما لا يتحرون الحقيقة !!

ضممته الى صدرى في حنان وكأنى أعتذر له في صمت بليغ ، تلاقت نظراتنا في عتاب ، هل هناك شيء يمكن أن يقال ؟ وطأطأت رأسى في خجل ، وتمتمت :

ـ « لقد قسوا عليك .. »

قال دون اكتراث :

ـ « ليكن .. انني أتعذب طول حياتى .. »

ـ « سيعوضك الله خيرا كثيرا .. »

ورأيته يهز كتفيه في اشمئزاز وقال :

ـ « أنا لا أتكلم عن الله ، ولكن يشغلنى الظلم الماحق الذى يذل البشر ، ويمرغ أنوفهم فى الاوحال ... »

لم تصادف كلماته رضى لدى ، فقلت :

ـ « الايمان بالله اولا .. »

ـ « لم نكفر به ، ولكن القضية الآن بيننا وبين الطغاة .. »

ـ « بارادته يتم كل شىء يا نور »

ـ « أتراه سبحانه يحمل السلاح عنا ؟؟ »

ـ « جل شأنه .. يوم « بدر الكبرى » أرسل جنودا لم يرها أحــــد .. »

ـ « أتقارننا يا عثمان بالصفوة الممتازة من صحابة الرسول.. »

كان واضحا أنه يعانى من أزمة نفسية لعلها بسبب ما عانى من تعذيب ، وما تعرض له فى حياته من اجحاف واهمال ، ومع ذلك فانى أؤمن دائما أن عزاءنا الوحيد هو الله ، الله هو الذى ينصرنا فى حربنا فى سلمنا ، فى السجون وخارج السجون ، انه سبحانه يهيىء الاسباب ، ولا بد ان يصدق وعده مع المؤمنين الصادقين .

قلت فى شرود :

ـ « ومع ذلك يا نور ، فيمكن أن نلتقى على معنى مشترك ، فالله ينصرنا ان نحن أخذنا بأسباب النصر من استعداد ويقظـة وصبر وكفاح واستعداد تام للتضحية فى سبيله .. »

هز رأسه موافقا ثم قال :

ـ « هل معك سيجارة ؟ »

ـ « تعرف أننى لا أدخنها .. »

ـ « رأيت أحد المسجونين يدخن عندما دخلت .. »

ـ « لا تجعلنى أساعدك فى أمر أراه محرما .. »

ودار بنظراته الحزينة الحائرة فى أنحاء المكــــان ثم قــال :

– « فى السجن على الاقل لن أفكر فى طريقة للحصول على الطعـــام •• »

واستدركت قائلا :

– « لم تخبرنى لماذا ساقوك الى السجن •• »

– « نفس السبب الذى من أجله أتوا بك الى هنا »

كنت اريد المزيد ، غير أنى أحجمت عن طرح مزيد من الاسئلة فى هذا الشأن لانه كان عازفا عن الخوض فيه •• ونظر الى طويلا ثـــم قـــال :

– « ألـم يأت أحد لزيارتك •• »

– « أبـــدا •• »

وشرد لحظات ثم عاد يقول :

– « هل نبقى هكذا طول العمر •• »

– « الايام تدور ، ولا شك أن الامور تتغير •• »

ضحك فى سخرية وقال :

– « وكيف تتغير ؟؟ أتظنها تفعل ذلك تلقائيا ؟؟ ان من يرفع راسه تخمدها ضربه مجنونة ، او تدفع الى غيابات السجون •• »

– « ان الملايين التى تربو على الخمسين لن تستسلم لهـــذا الحيف »

قال وقد احتقن وجهه :

– « الفقراء الجائعون لا يصنعون نصرا •• أنت واهم »

قلت فى حدة :

– « اذن فأنت لا تعرف حقيقة شعبنا •• »

وعاد يهز رأسه ويقول :

– « أعرفه جيدا •• اسمه سالامس ساحل العبيد •• وأذاقه الاستعمار ألوان العسف لمئات السنين •• وعندما نال استقلاله ••

أخذ ينتحر ويقتتل ويبدد شمله ٠٠ أعرف شعبى لانى أعرف نفسى ٠٠أنا مجرد ضائع ٠٠ حزين ٠٠ بلا عمل ٠٠ تشوي السياط جسدى كما كانت تشوى أجساد أجدادي الذين كانوا يشحنون كالحيوانات فى السفن الى الدنيا الجديدة ٠٠٠ هذا أنا وهذا هو شعبي ٠٠ »
أزعجتنى كلمات نور اليائسة ، كنت أظنه قد جاء الى السجن انسانا جديدا ، صهرته الاحداث ، ومحصته التجربة المريرة ، وأراد أن يشارك بدور فعال فى صنع المستقبل لامته ، وهأنا أراه محطما تافها لا يصلح لشىء ٠٠

قلت وقد تغيرت نبرات صوتى ، وبدا الغضب على وجهى :

ـ « ماذا بك يا نور ؟؟ »

وأدرك ما أعانيه من قلق وضيق بسببه ، وفهم أننى لا أقر أسلوبه فى الجدل ، ولا أحترم أفكاره التى تنحو منحى التشاوم والاستسلام ، فابتسم وقال :

ـ « هل غضبت ؟؟ »

ـ « ليس هذا أسلوب رجل محترم يفكر فى خلاص وطنه ٠٠ »

وابتلعت ريقى ثم استطردت :

ـ « أعرف أن فى بلادنا كثيرا من الظلم والقصور ، لكننا شعب أصيل يملك الايمـــان بالله ، ولديـــه الامكانيـــات الضخمة التى يطمع فيها الجميع ، ومن ثم فان الله لن يضيعنا ٠٠ »

نظر الى بعينين متعبتين متوسلتين وقال :

ـ « لم أنم منذ ليلتين ٠٠ لعنة الله عليهم ٠٠ ولقد عدت الى الخمر التى لا أجدها الآن ٠٠

حتى الحصول على السيجارة أصبح مشكلة ٠٠ »

ثم تنهد فى حسرة وقال :

ـ « لقد كرهت الناس جميعــا ٠٠ تصـــور أنهم يتهمونـــى

بالخيانة ·· ما فائدة أن أناضل مع فئة تشك في اخلاصي وتطعنى في أعز ما أملك ··· الناس ينسون يا عثمان ··· ان العدو يحاول أن يفتت وحدتهم ، ويمزقهم اربا اربا ، حتى يحطمهم من الداخل·· وحتى ينتصر عليهم دون أن يشهر السلاح ·· لهذا اندفعت كمجنون وأخذت أسب والعن ايرونسى وتشوكوما والجيش والحكام الجدد ·· كنت كالمجنون تماما ·· لم أفعل ذلك عن دافع وطنى ·· ولكن لاثبت للناس أننى أستطيع أن أضحى ·· وان كلام الناس سخف وانحطاط ·· »

واستطاع نور بمرور الوقت ، وبما أغدقته عليه من رعاية ومساعدة أن يقترب من الهدوء النفسى ، والرضى القلبى ، ونسى الخمر والتدخين ، وكنت أراه يتوضأ ويقف الى جوارى فى الصلاة·· وفى أثناء حملات التعذيب التى كنا نتعرض لها ، كان يتلقى الاساءة من العسكر بغير قليل من الصبر والايمان ، فتغيرت الفكرة عنه كثيرا،واستعاد الناس ثقتهم به كما استعاد ثقته بهم ،وأخذ يشاركنا فى الفكر والدراسة والنظر فى أمر المستقبل ··

وقال « نور » ذات يوم :

ـ « ألا ترى أن الجلادين لا يعذبونك بالقدر الكافى ؟؟ »

قلت فى دهشة :

ـ « لا أفهم ما ترمى اليه »

ـ « كان المتوقع أن يصلبوك أو يزيدوا فى مضايقتك ·· »

ـ « لم أفكر فى شىء كهذا يا نور ، انهم يضربون ضربات عشوائية ·· »

نظر الى طويلا بطريقة جعلتنى أرتبك ، ما معنى ذلك ؟؟ هل يقصد « نور » اننى أحد عملائهم ؟؟ وأخذت اضحك فى بلاهة ، اذ أن توارد مثل هذا الخاطر على ذهني يجعلني أبدو وكأننى قد

قبض علي متلبسا بالجريمة ، مع اننى برىء تماما من أى ظن سيء ٠٠٠

ـ « عثمان امينو ٠٠ زيارة خاصة ٠٠٠ »

وعجبت لهذا الامر ايما عجب ، فليس لى أم ولا أب ولا أخ ، ولا أظن أن لي أقارب لهم سطوة فى ظل الحكم العسكرى الجديد كـى يتوسطوا لي فى زيـارة خاصة لا ينالهـا الا ذوو الشأن ٠٠ وكرر السجان اسمي مرة ثانية ، فتأكد لى صدق الخبر ٠٠

وأعددت نفسى للذهاب الى المكان المخصص للزائرين ، لا بد أن أغسل وجهى جيدا ، وارتـدى ، « الدامر » المزركـش والطاقية الجميلة ، على الاقل يجب أن أبدو صامدا قوى الايمان ، وان أخفى ما بجسدي من آثار الضربات ، وقال لى السجان وهو يرافقنى الى مكان الزيارة :

ـ « حذار أن تتكلم عن سوء المعاملة هنا ٠٠ أنت تعلم عقوبة من يخالف الاوامر ٠٠ مفهوم ؟؟ »

ـ « مفهوم ٠٠ »

وتذكرت أن « نور » عند سماعه لنبأ الزيارة كان يضحك فى سعادة من كل قلبه ٠٠٠

لا شك كنت متعجبا لمثل هذه الزيارة ، لكنى بعد فترة مـــن التفكير أمكننى أن أخمن من القادم ، ان الشيخ عبد الله لا يترك أبناءه الدراويش هكذا دون أن يسأل عنهم ، من عادته أن يسأل عنا أو يرسل الينا من يطمئن على أحوالنا ، ثم أنه يرعى أسرنا فـــى غيبتنا ، هذا هو شأن الاخوان فى الله ، ثم أن بقايا حزب مؤتمر الشمال يحاولون التجمع بعد الضربة القاصمة ، ويبحثون عـــن شبابهم وزعمائهم المطاردين ، وزائري لن يخرج عن واحد من هذه الجهة أو تلك ٠٠ وأبى السجان العنيد أن يخبرنى من الزائر وان كان هذا مخالفا للنظم والقوانين ، وكيف الجأ الى القوانين فى وقت عصسب كهذا ٠٠٠

حينما دخلت غرفة الزيارة ، ما كنت أتخيل قط أن تكون زائرتى « جاماكا » ٠٠ آه ٠٠ شعرت بارتبـاك وخجـل كبيرين العيون السوداء التى أرقت ليلى طويلا ، ولم ترحم نهارى بأحـلام اليقظة ٠٠ كانت فتنتها أضعاف ما كنت أعرف ٠٠٠ ونظرت اليها مشدوها ، وجمدت لدى الباب ٠٠ وفتحت ذراعيها واقتربت منى ، لكن يدى امتدت الى ذراعيها وأمسكت بهما فلم تتمكن من العناق ٠٠

قلت فى جفاء مصطنع :

ــ « اننى أصبحت أمقت كل الايبو »

ابتسمت ونظراتها تعبر عن الاحتجاج ، وقالت :
ـ « أردت أن أثبت لك أن كثيرين من الايبو عكس ما تصورت»

وحانت مني التفاتة الى ضابط السجن القصير المكفهر الوجه، فعلق على الفور قائلا في غيظ :
ـ « أنت سليط اللسان لا تعرف للياقة معنى »

صحت في غضب :
ـ « أنا أرفض هذه الزيارة ·· »

هب من فوق كرسيه قائلا :
ـ « اذهب الى الجحيم ·· »

تمنيت أن أهوى على رأسه بكلتا يدى ، لكنى استطعت أن أتصور ما سوف يعقب ذلك ، سوف ينتقمون منى بطريقة مهينة أمام جاماكا ، وسوف تتعقد الامور أكثر ، والسجين فى أغلب الاحيان عاجز عن أن ينتقم لكبريائه رهن الاسوار العالية ·· واستدرت في حركة عنيفة مزمعا الخروج ، لكن « جاماكا »أمسكت بيدى فى تشبث ، وعاد الضابط يصيح :
ـ « دعيه يعد الى زنزانته ·· »
قالت « جاماكا » وهي ترمقه في امتعاض :
ـ « ان معي تصريحا بالزيارة من « ايرونسى » نفسه ، ولا بد أن تتم الزيارة ·· ولعلي لا أبالغ اذا أصررت أن أكون معه وحدى··»

وبدا الموقف مثيرا يقترب من أزمة حادة ، وعادت « جاماكا » تقول :
ـ « أعتقد أن مخالفة أوامر القائد تعنى خطورة بالغة ·· »

وانتفض ضابط الايبو ، وجمع بعض الاوراق وهرول تاركا الغرفة

والغضب يرعش جسده كله ، وابتسمت « جاماكا » وقادتني الى مقعد صغير ، وجلست الى جوارى ••

ـ « كنت قلقة عليك •• »

ـ « ليس هناك ما يدعو الى ذلك »

ـ « عندما تحتدم الفتن لا يفرقون بين صغير وكبير •• »

ـ « الامر بالنسبة لي مجرد ضريبة أؤديها لله والوطن ••• »

تنهدت فى شىء من الارتياح وهى تقول :

ـ « لم تحدثنى عن رحلتك الى الايبو »

ـ « نحن الآن فى السجن •• »

ـ « لكني كنت أنتظر أخبارك •• »

وشردت وأنا أحملق فى سقف الغرفة الصغيرة :

ـ « كانت رحلة رائعة عبر القرى والغابـات •• ودعونا الى الله •• وأسلم على يدينـا خلق كثير •• هـل يضايق ذلك ؟؟ »

قالت فى دهشة :

ـ « أبدا •• أبدا •• يسعدنى ذلك •• »

والتفت اليها فجأة وقلت :

ـ « لماذا جئت ؟؟ »

ـ « ألسنا أصدقاء ؟؟ »

ـ « من قال ذلك ؟؟ »

ـ « قلبـــى •••• »

وشعرت بدقات قلبى تلهث وتتسابق فى روعة ، دارت عيناى فى حيرة ، وما زلت أتطلع الى السقف العالى ، وهمست :

ـ « لماذا لا تنظر الي ؟ »

ـ « لي النظرة الاولى كما افهم من دينى ، وما عداها وزر •• »

ـ « الوزر حسبما أعتقد فى النظرات الآثمة المتشهية •• »

كدت أبتسم للباقتها وذكائها ، لكنى هربت قائلا ،
ــ ان زيارتك تثير تساؤلات كثيرة ٠
ــ « لماذا يا عثمان ؟ »
ــ « هل نسيت ما فعله الايبو ؟؟ »
ــ « لقد جئت أزف اليك بشرى غالية ٠٠ »
وهنا التفت اليها قائلا :
ــ « ما هى ؟؟ »
ــ « سيحدثك عنها شيخك عبد الله »
ــ « لا أفهم شيئا ٠٠ »
ــ « لقد اعتنقت الاسلام ٠٠٠ »
وقفت وصحت فى دهشة :
ــ « غير معقول ٠٠ »
ــ « لقد درست ٠٠ وسمعت ٠٠ وسألت ٠٠ ووجدت اجابات شافية لكل ما اريد ٠٠ ولهذا آمنت ٠٠ كنت أنت السبب ٠٠ »
قلت فى حزن :
ــ « هل آمنت من أجلى ٠٠ »
ــ « كنت أنت السبب ٠٠ وعرفت عن طريقك أن هناك نقصا فى عقيدتى ٠٠ لا تكتمل العقيدة الا بالمقارنة ٠٠ وقارنت بين عقيدتى الوثنية الاولى ٠٠ ثم المسيحية ٠٠ ثم الاسلام ٠٠ وهكذا أسلمت ٠٠ لا لاتزوجك ٠٠ ولكن لان الاسلام حق ٠٠ »

وتذكرت الكلمات الخالدة ، « لان يهدى الله بك رجلا واحدا خير لكمن الدنيا وما فيها ٠٠» ،وفاض قلبي بسعادةغامرة،وفى لحظات نسيت المآسى التى دبرها الايبو بتحريض من الاستعماريين والمبشرين ودعاة الانفصال ٠٠ وغمغمت :
ــ « هذا شىء يثلج الصدر حقا ٠٠ »

وغشيتها موجة من الانفعال ، وتبللت عيونها الجميلة بالدموع وقالت :

ـ « لقد بكيت كثيرا من اجل احمدو بيللو »

وسادت فترة صمت أردفتها هي بقولها :

ـ « وعندما أسلمت طردونى من المستشفى الذى كنت أعمل به ·· خرجت هائمة على وجهى ·· بحثت عنك قالوا في السجن·· أصبحت بين الايبو الذين يعيشون فى الشمال كالمنبوذة ·· لقد ظن المتصرون أن بأيديهم مفاتيح الرزق ·· وقال لي الشيخ عبد الله عندما ذهبت اليه « لا تحزنى يا ابنتى ·· فالرزق مكفول ·· بشراك أن وضعت قدمك على أول الطريق الصحيح ··· وقدم لي كل عون

تمنيت فى هذا الوقت أن أعقد قرانى عليها ، وأن أضمها الى صدرى وأغرق عينيها الجميلتين ووجهها المشرق الحي بالقبلات ، لكن القيود القديمة التى لا ترى شلت حركتى ، وبقيت أضحك وأثرثر كالابله ، كان قلبى يضيق بالفرحة ، ولم أكن أستطيع أن اعبر بطريقة سوية عما يجيش فى صدرى من أفراح ··

وسمعتها تقـول :

ـ « كنت أفكر فى طريقة أخرجك بها من السجن ، ولذا ذهبت الى ايرونسي القائد بواسطة أحد معارفى القدماء ولم يكن يعرف انى أسلمت ، واستطعت أن آخذ موافقة بالزيارة ·· والاكثر من ذلك أنه وافق على الافراج عنك اذا ما وقعت على هـذه الوثيقة ·· »

وأخرجت « جاماكا » من حقيبتها الصغيرة ورقة ، ونشرتها أمامى كانت السطور عبارة عن تعهد بان أؤيد الثورة الجديـدة ، وأتبرأ من كل ماض سياسى ، وأن أسير فى ركاب الحكم الجديد··

زاغت نظراتى ، ثم أمسكت بالورقة ومزقتها اربا اربا وأنـا أقول فى عصبية :

ـ « تريدين أن أبيع نفسي للشيطان •• »
ـ « بل اريدك لي •• ».
ـ « وكيف تقبلين رجلا تخلى عن مبدئه وشرفه •• »
ـ « أريدك أن تبتعد عن السياسة •• ونعيش نعبد الله فى حـــب •• »
وابتسمت والعرق البارد يتقاطر على جبينى :
ـ « ليست العبادة صوما وصلاة وذكرا فحسب •• ولكن المساهمة فى تخليص المظلومين عبادة •• والانتصار لكلمات الله عبادة •• ونشر العدل والحرية عبادة •• ان شيخى لم يجد الوقت الكافى ليشرح لك كل ما يجب أن تعرفيه عن الاسلام •• »
قالت وهى تخفض رأسها فى حسرة :
ـ « كنت آمل أن تخرج أنت وتكمل لى الحديث عن الله •• »
ودخل ضابط الايبو وقال :
ـ « لا •• غير معقول •• لقد طالت الزيارة أكثر مما يجب•• »
هبت واقفة والدموع فى عينيها ، كنت أعـرف أن لديهـــا تساؤلات كثيرة ، لكن الظروف والوقت لا يسمحان ، قالت وهى تتجه صوب الباب وتنظر الي في أسى بليغ :
ـ « ماذا قلت يا عثمان ؟ »
وابتسمت هذه المرة ابتسامة حقيقية تعبر عن كل ما يجيش بقلبى ، وأدركت على التو معنى سؤالها ، فقلت :
ـ « أجل •• سنتزوج عندما يفك الله اساري •• »
ورأيتها تضحك والدموع فى عينيها ، وكادت تتعثر وتنكفىء لدى عتبة الباب ، لكننى أمسكت بها فى آخر لحظة ، فلم تصب بسوء ، وبقيت أنظر اليها وهى تبتعد •• لقد امتلأ قلبى بحبها •• وأخيرا عدت فى صحبة السجـان الى الحجـرات الضيقـة الكئيبة

الفاسدة الهواء ، واخوة السجن يثرثرون ويتناقشون بصوت حاد ..
وما أن رأونى حتى هرولوا صوبى فى لهفهم المعهودة وهم يقولون :
ـ « الاخبار .. »
زممت شفتى ثم قلت :
ـ « لا جديـــــد .. »
وبدا على وجوههم اليأس والضيق ، انهم يريدون أن يسمعوا أى شيء ، يريدون أن أروى لهم بعض الشائعات ، بل ان بعضهم يريد أن أكذب عليهم وأروى لهم بعض الاخبار المطمئنة التى يدبجها خيالى .. انهم يفجعون اذا فاجأهم أحد بالحقيقة المرة ، يخيل الى أن كثيرين من المضطهدين والمعذبين يحاولون الهروب من الواقع ، وقد يكرهون الحقيقة .. يتلذذون برسم عالم من الوهم والخيال تجرى فيـــه الاحداث على هواهم .. وجدتنى أقــول لهم فى شيء مـن الثقة :
ـ « تأكدوا أن النصر قريب .. »
ألف سؤال بمعنى واحد انهالت على :
ـ « وكيف عرفت ؟؟ »

ووجدت الزملاء أنفسهم لا يتركون لى فرصة للاجابة علـــى تساؤلهم ، بل تطوع كثيرون منهم بالقول « الزائر شخصية كبيرة وقد أسر لعثمان ببواطن الامور ، عثمان لا يستطيع أن يكشف النقاب عن مثل هذه الامور الخطيرة .. استعينوا على قضـــاء حوائجكم بالكتمـــان »
وصاح واحد منهم :
ـ « أعطوا الفرصة لعثمان كى يتكلم .. »
وانتقلت كلماتى البسيطة العامة ، التى ليس لها دلالات خاصة محدودة ، والتى لا تخرج عن كونها مجرد أمنيات رجل يؤمن بربه ويثق بنصره ، انتقلت هذه الكلمات من فم الى اذن ، ومن هذا الى ذاك ،

وتضخمت وكبرت ، وأصبحت كالحقيقة المؤكدة القريبة الوقوع ، وطوال هذا الوقت لم أجد فرصة أعبر فيها عـن الحقيقة ، وفـي المساء آوى الجميع الى فراشهم وعلى ثغورهم ابتسامات آملة ...
مال علي « نور » هامسا :
ـ « هل أتت جاماكا لزيارتك ؟؟ »
قلت متعجبا :
ـ « كيف عرفت ؟؟ »
ـ « كانت تبحث عنك ، وأخبرتنى أنها تريد زيارتك .. لكنى سخرت منها وضحكت .. »
ـ « لماذا ؟؟ »
ـ « أمرها عجيب يا عثمان .. ما كنت أتصور أنها ستجن بك لهذه الدرجة .. »
ـ « وهل عرفت أنها أسلمت ؟؟ »
ـ « أنت تمزح يا عثمان .. »
وهب من جلسته ، ووقف مبهوتا وقال مستطردا :
ـ « انى لا أصدق .. لقد كانت تبشر بالمسيحية بين المرضى .. وكانت تحدثنى عن ذلك أملا فى أن أرتد عـن دينى .. »
وشرحت لنور كل ما جرى ، وهو لا يكاد يصدق ما أرويه له ، كان يعتقد أن أنتصار ايرونسى وتشوكوما وعصابات الايبو فـي الجيش، تعنى التمكين لهم ولحركات التبشير والنشاط الاسرائيلى، ولم يكن يتصور أن تسلم فتاة مثل « جاماكا » وهـى تنتمى الآن للطبقة التى تحكم وتسود .. وقلت فى شرود :
ـ « عندما أخرج يا نور .. فسأتزوجها .. وسأتعلم منها كيف أعطى الدواء بالمحاقن ، وكيف أعالج عيون المرمدين والمحمومين .. وسنفتح بابنا لفقراء المسلمين الذين تزدريهم المستشفيات

التبشيرية ..»

وقال نور وقد بدا على وجهه غير قليل من الكدر :

ـ « ستتزوجها اذن ؟؟ »

ـ « ولم لا ؟؟ »

ـ « ما كنت اتصور أن يحدث ذلك »

ـ « امرأة فتحت قلبها لنور الله ، فكيف أغلق بابى فى وجهها ؟؟ »

ـ « أهى التى طلبت الزواج ؟؟ »

ـ « أنا أحبها يا نور »

ـ « كنت أدرك ذلك .. »

وسمعنا ضجة بالخارج ففزعنا ، ووجدنا صفا طويلا من المسجونين الجدد يساقون داخل مبنى السجناء ، يا الهى ها هو عبد الرحيم بينهم .. ثم من هذا ؟؟ انه شيخى عبد الله يسير فى المقدمة .. وجريت صوبه ، ولم أعبأ بركلات السجانة وقبضاتهم القاسية وهى تهوى على رأسى وجسدى ، واختطفت يدى شيخى لاقبلها وأغرقها بدموع الحب والفرح ..

١٣

أنا لا أطرب اذ أرى الناس يساقون الى العذاب ، ومع ذلك فقد امتلأ قلبي بسعادة كبرى وأنا أرى شيخي يدخل السجن ، حاولت أن أتعمق مشاعري فى هذه النقطة بالذات ، فوجدتنى أمــام عدة تفسيرات أولها أن الانسـان يحس بشيء من الاعتزاز وبمزيد من الثقة حينما يرى أن قائده يتعرض لمثل ما يتعرض له ، انه نــوع مــن المساواة في تأدية فريضة الجهاد ، وثانيها أني كنت كثيرا ما أشعر بأن شيخي بمنزلة العم والأب ، ووجوده الى جواري يمدني بالحنان، ويسبغ علي مزيدا من الامن ، وثالثها أنني أرى أن حركة المقاومة ضد الطغيان تنمو وتكبر ، وأشاهد ذلك في تكاثر عدد الذيــن يساقون الى السجن ، وخاصة الرؤوس الكبيرة المفكرة أو التي كانت تحكم أو التي كانت تقود حركات النضال النظيفة ، وربما تكون كل هذه الاسباب مجتمعة مضافا اليها ما اعترى وضع « جاماكا » من تغيير هي التي أدت الى ما ينبض به قلبـــي من اعتزاز وسعــادة ويقين ..

وتلقيت عبد الرحيم بالاحضان ، كنت أحبه وأشعر انه انسان طيب صافي القلب ذو ذكاء فطري ، واخلاص غير مصطنع ، وكانت هناك مجموعة كبيرة من السجناء تتحلق حول الشيخ عبد الله فى

الاوقات التي يسمح فيها باللقاء الحر ، غير أن الامور لم تكن تسير في مجراها الطبيعي ، ان أحلامي الكبرى تصطدم من آن لاخر بحقائق مذهلة ، ووقائع مريرة ، فلقد حدثت ظاهرة جديدة لم نكن نألفها في السجن ، كنا منذ دخلنا حتى ذلك الوقت نكاد نكون على قلب رجل واحد ، وكان هذا مظهرا من مظاهر قوتنا واصرارنا على السير في الطريق ، غير أن بذور خلاف قد نبتت بين السجناء السياسيين كما يسموننا ، فقد ظهر بضعة أفراد يجاهرون بما يعانون من ملل وضيق ، ويعلنون تشاؤمهم ، ويزعمون أنه لا فائدة من المقاومة أو الاصرار على موقفنا ، اذ أن حركة المقاومة - في ظنهم - لا تحرز أي تقدم ، وأن الحكومة الجديدة قد أحكمت قبضتها على البلاد ، وأن هناك تأييدا خارجيا يدعمها ويحرسها ، ومن ثم أعلنوا رأيهم في الموقف بصراحة ، وهو أنه لا بد من التفاهم مع الحكام الجدد ، والنزول على رأيهم ، واعلان التأييد لهم ، حتى تفرج عنا ، وتدعنا ننصرف الى حياتنا وعلى الرغم من أن عدد هؤلاء المنشقين كان قليلا بحيث لا يزيد على أصابع اليدين والرجلين عدا ، الا أنهم هددوا أمن المجموعة وسلامتها ، وأحالوا أيام السجن الى كدر وحزن شديد .. وتطور الامر الى مناقشات حادة ، والمصيبة الكبرى أن « نور » قد انضم اليهم ، قلت لنور :

- « كيف تجرؤ على هذا التصرف ؟؟ »

- « قال لا سلطان لاحد علي .. أنا حر .. »

- « لكنها قضية شعبنا يا نور .. »

- « أنتم تخدعون أنفسكم كما خدعت نفسي بالامس .. ليست هناك قضية .. هناك صراع على الحكم ، ومن الحمق أن أشترك فيه .. فلن أكون وزيرا في يوم من الايام .. وأنت كذلك .. نحن وقود لاطماع الزعماء » .

آلمني حديثه ، كنت أرى على وجهه ملامح شخص آخر غير نور الذي كنت أعرفه ، لم يكن يخجل أو يخاف عندما يصرح بآرائه ، وبلغت به النذالة مداها ، حينما طلب ورقا وأقلاما ليكتب التماسا لرئيس الحكومة أعني الحاكم العسكري العام ، كنت أتحرق غيظا وغما ، قلت له :

ـ « تستطيع أن تعيد النظر في الامر ٠٠ »

ـ « قررت أن أحيا لنفسي ٠٠ أن امارس حياتى فى الخارج على أي وضع ٠٠ لم يعد لاى شيء قيمة ٠٠ »

ـ « أنت جندي في جيش الحق يا نور ٠٠ »

قهقه بصوت مرتفع وقال :

ـ « الملايين في الخارج تستمتع بوجودها ٠٠ لماذا أنا وأنت بالذات نهرع الى ارتكاب الحماقات ؟؟ لو كنت مكانك لاسرعت بتقديم اعتذار مكتوب كي اخرج ٠٠ ان جاماكا تنتظرك ٠٠ »

وشرد بضع لحظات ثم قال في صفاقة لم أعهدها فيه :

ـ « أتعرف أنني كنت أحبها ٠٠ »

صرخت في دهشة :

ـ « ماذا ؟؟ »

ـ « نعم ٠٠ كنت أحبها ٠٠ لكنها رفضتني ٠٠ كانت تسخر مني لست أدري لماذا ٠٠٠ وعندما عرفتك وجدتها تهرول اليك كالمجنونة ٠٠ كانت على استعداد أن تكون جارية لك ٠٠ هناك أشياء كثيرة في الحياة لا يمكن تفسيرها ٠٠ أتعتقد أن هناك فئة من الناس خلقت للشقاء يا عثمان ؟؟ ولماذا يشقى قوم ويسعد آخرون ؟؟ »

قلت له وأنا أتمالك أعصابي :

ـ « هل شربت كاسا ؟؟ »

ضحك في امتعاض وقال :

ـ « يا ليت ٠٠ لكن عندما أشتاق للخمر ولا أجدها أبدو وكأني سكران ٠٠ أتخبط وأهذي كالمحموم ٠٠ »

ـ « ألا تذهب لتصلي بضع ركعات ؟؟ »

ـ « انني أهرب من مواجهة ربي ٠٠ »

ـ « لكنه معك أينما كنت يا نور ؟؟ »

ـ « أتظنه يا عثمان كان معي وأنا أتسكع جائعا عاريا بلا مأوى والتعاسة تطحنني بلا عمل ولا مال ولا حبيبة ؟؟؟ »

أمسكت بذراعه وهتفت :

ـ « استغفر الله يا نور ٠٠ »

ـ « ذنوبي أكثر من أن يمحوها استغفار ٠٠ »

ـ « أنت مريض ٠٠ »

ـ « وهذا هو عزائي ٠٠ ألست تقول إنه ليس على المريض حرج ٠٠ »

ـ « لكنك يجب أن تفعل شيئا طيبا يا نور ٠٠ يجب أن تصمم على أن تخرج من محنتك ٠٠ كلنا نعاني بطريقة أو بأخرى ، لكننا نصبر ونصمد وننتظر نصر الله ٠٠ »

قال في حدة :

ـ « لانكم حمقى ٠٠ »

وهممت أن أصفعه ، لكني تماسكت ، الداعية الى الله يجب أن يكون على قدر كبير من التسامح والصبر والا ما استحق أن يحمل شرف الرسالة العظمى ٠٠ وانتزع نور نفسه من مجلسي وانصرف ٠

كانت الورقة والقلم في يده ، وكان يتجه هو وبعض المنشقين نحو غرفة قائد السجن ٠٠ وفجأة انقضت عليهم مجموعـــة من

المتحمسين ، وأشبعوه هو ومن معه ضربا ‥ كانت مأساة مؤلمة ، دماء الاخوة المظلومين تسيل وتمتزج ، لقد تيقظت الفتنة ، ورأيت ضابط الايبو يقف خلف زجاج النافذة داخل حجرته يبتسم في سعادة ، ومنع السجانة من التدخل لوقف النزيف ، كان يتمنى أن تستمر المعركة ، ويزيد النزيف ، وتتمزق أواصر الاخوة ، فتنهد المقاومة ، وتفرغ الحكومة الجديدة من المناوئين ‥ ورأيت شيخي عبد الله يشرق بوجهه الطيب ‥ واقتحم المعمعة كفارس تقليدي معمم دون تردد أو وجل ، وصرخ صرخة اهتزت لهـا جنبـات السجن :

ـ « كفوا أيديكم أيها الاخوان ‥ »

وأصيب الصراع الحامي بالشلل ، توقفت الايدي والعصـي والارجل ، ووقف كل في مكانه ، وارتمى في ساحة المعركة رجلان يئنان من الجراح ، وشدت الاعين والاسماع الى الرقعة الصغيرة التي كانت تشتعل خلافا ووحشية منذ لحظات ، وتجلى الشيخ في الوسط كينبوع من الصدق والشجاعة والحب والايمان ونادى بأعلى صوته :

ـ « يا أبنائي الاعزاء ‥ كلكم أبنائي ‥ اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ‥ هذا ما قاله نبيكم صلى الله عليه وسلم ‥ ومن قديم كانت المعركة الاصيلة هنا ـ وأشار الى قلبه ـ فمن انتصر على نفسه الامارة بالسوء ‥ دانت له الدنيا، وخضعت له رقاب الجبابرة ‥ النصر آت ، لكنكم قوم تستعجلون، والموت لا بد آت ، ففيم الخوف ، والجنة معدة للمتقين ، فلم تهرولون الى النار ‥ طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ‥ قوموا الى الصلاة يرحمكم الله ‥ »

كان وقت العصر قد دخل ، وسمعت صوت أحد السجنـاء

يؤذن بصوت ندي شجي « الله أكبر •• الله أكبر •• » وما أن انتهى الاذان حتى أخذ الجميع يلتحقون بالصفوف في هدوء ••

ووجدت نور ـ للاسف ـ ممسكا بالورقة ، متجها صوب غرفة القائد ، وفي نظراته جنون ، ومن جرح في جبهته تسيل قطرات من دماء •• كنت أعاني وقتئذ من حزن شديد ••

وقضينا ليلة عصيبة تؤرقها الذكريات الدامية ، وفي صباح اليوم التالي كان الشيخ عبد الله يقول لنا :

ـ « ابحثوا عن الجاني •• »

وبعد لحظات جاء أحد السجانة ، واستدعى « نور » ، وطلب منه أن يجمع حاجاته ، فأسرع على التو بجمعها ، وقال العسكري :

ـ « لقد صدر أمر بالافراج عنه •• »

وهز الشيخ عبد الله رأسه قائلا :

ـ « علمت من مصادر يوثق بها أن نورا هو الجاني •• ما أبشع الفارق بين اسمه وفعله •• هو نور •• وقلبه يمتلىء بالظلام •• صدق الشاعر العربى القديم اذ يقول :

وأسميته صالحا فاغتدى   بضد اسمه في الورى سائرا
وظن بأن اسمه ساترا   لاعيـــابـه فغـــدا شاهرا

وهكذا الدنيا يا أبنائي تخدع قصار النظر •• لو نظرنا الى بعيد •• لوجدنا على الشاطىء الاخر نعيما مقيما •• لكن عيبنا أن بعضنا مصاب بقصر النظر •• وهو على أية حال ليس مرضا خلقيا كالذي نعرفه •• انحراف يعالج بالرياضة الروحية •• رددوا معي جميعا هذه الكلمات « أستغفر الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ولا اله الا الله ، والله أكبر •• » قولوها ألف مرة ••

وجلس الجميع كخلية النحل وقد غمرها الطنين ، كانــت العيون مسبلة والقلوب معلقة بالله ، وكل شيء عظيم أو مخيف في

هذه الدنيا يتضاءل ويضمر أمام دفقات الايمان التى تغمر القلوب والارواح •• وقطعنا رحلة روحية ممتعة ، غبنا فيها عن سخافات الوجود ، وأحزان الواقع ، لنعود الى هذا الواقع وقد تزودنا بقوة لا ترهب الحديد والنار وعار السجـــانين •• وعلمنا من بعض السجانة بعد أيام أن « نور » قد ظهرت صورته في احدى الصحف ، وأدلى بحديث لمحررها ، زعم فيه أن المعتقلين السياسيين يعيشون في أمن واطمئنان تحت رعاية الحكومة وعطفها عليهم ، وأنهم قـد أبدوا تأييدهم الكامل لسياسة الحكومة الجديدة ، وندموا على ما فعلوا ، وسيفرج عنهم في وقت قريب ، كما علمنا أن نور يرتدي الفاخر من الثياب ، وأصبح موظفا محترما ، وأنه يقضي سهراته في الحي الجديد من المدينة يسكر ويعربد ••

ترى هل ظن المسكين أنه قد وجد الحل الصحيح لمشكلته ؟؟

ومتى كانت الخيانة طريقا للامن والسعادة والاستقرار ؟؟

وقال شيخي :

ـ « انظروا الى السماء •• نحن في آخر الشهر العربي •• والظلام دامس •• والنجوم تقاوم الظلمة •• لكن لا تنسوا القمر •• سوف يسطع عما قريب •• واذكروا أن بعد الليل نهارا ••

هكذا الدنيا •• ولكنكم قوم تستعجلون •• »

قلت في مرارة :

ـ « يا شيخي •• الطغيان يتوطد •• والسفلة يسودون •• »

وابتسم وقال :

ـ « عندما يعجز البشر •• تأتي سفينة نوح •• أو تنقض صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود •• يا أبنائي •• ارفعوا راياتكـم الخضراء ، واكتبوا عليها : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » والله سبحانه لا يخلف وعده •• ما دمنا مؤمنين ••• »

وطال بنا المقام في السجن ، وقد حرص شيخنـــا على أن يرغب السجناء في حفظ القرآن الكريم وقراءة تفاسيره ، كمـا دعاهم الى القراءة المستمرة ، وتثقيف أنفسهم ، واستغلال بعض الوقت في ممارسة الالعاب الرياضية من جري ووثب وحفلات للسمر البرىء ، وكنا نتحلق حوله في الامسيات الطويلة ، يحدثنا عن تاريخ قبائل الفولاني والهوسا وملوك المسلميـــن وكيف انتشر الاسلام في بلادنا ، وكيف تسلل المستعمرون الى ديارنا ، وأحالوها الى سوق للعبيد ·· وكيف أن ديننا هو دين العزة والوحدة والكرامة والحرية ·· وأن الاستمساك به هو الطريق الوحيد الى النصر ·· وكنا نستمع الى حكاياته القديمة والحديثة وكأننا أطفال تسحرهم حكايات الجدات والجدود ·· نقبل عليها في نهم ، ونروي بهـا ظمأنا الى العدل والحب والحرية والمثل العليا ··

يا لها من أيام جميلة برغم ما شابها من أحزان !!

انني أتذكرها الان بعد أكثر من سبع سنوات فيخفق قلبي ، وتشدني الذكرى ، وأهيم في جنباتها وأستنشق عبيرها السحري·· ما أحلى أيام الكفاح !!

١٤

كان الله في عونك يا « جاماكا » !! لشد ما عانت في هذه الفترة العصيبة من أهوال ، هذا ما روته لي فيما بعد ، لقد ضاقت فى وجهها كل السبل ، وخاصة بعد أن سجن الشيخ عبد الله ، وبعد أن أصبح معروفا أنها قد اعتنقت الاسلام ، طاردتها المؤسسات التبشيرية في عنف ، لاحقتها بالتهديد والتخويف ، في وقت ارتفعت فيه رايات الايبو والقوى المسالمة للاستعمار ، ان جل المستشفيات في يد الكنيسة ، والكنيسة غاضبة عليها ، ولذا كان من الاستحالة بمكان أن تجد عملا في مستشفى آخر بعد أن فصلت من المستشفى الاول ، وأصيبت المسكينة بما يشبه الصدمة ، لقد علمها القساوسة والرهبان في البداية أن الدين محبة وتسامح وحرية ، وأنه يرفض التعصب والعنف ، ويقدس كرامة الانسان ، لكنها الان ترى بعينها انهيار القيم التي حدثوها عنها في قرى وغابات الايبو من قديم ، ابتساماتهم الحلوة تحولت الى تجهم وتكشير عن أنياب الغدر ، كلماتهم الرقيقة أصبحت زجرا وسبابا ، لمسات الحنان انقلبت الى دفع وقسوة .. حاربوها في رزقها حتى كادت تموت جوعا .. وتمتمت جاماكا :

ـ « كان اسلامى اختبارا لماهية المبادىء التى يتشدقون بها ، انهم متعصبون حمقى ، تحركهم نزوات حيوانية تشبه نزوات

الحيوانات في الغابات ، لم أعد أشك في أن هذه المؤسسات التبشيرية لا تعرف الكثير عن الله أو الانسان ، انهم مجرد تجار .. جنود في جيش كبير يخدع العالم ، ويمهد لانتهاب ثرواته ، والسيطرة على مقدراته .. ما أبشع الفارق بينهم وبين حبيبي .. عثمان انسان نبيل يعرف الله حق المعرفة .. المصيبة الكبرى أنهم دفعوا الي ببعض جواسيسهم كي يغروني بالمال تارة ، وبالزواج تارة أخرى .. جاءني مرة دكتور « هانيمان » .. وهو طبيب ومبشر في أكبر مستشفى بالعاصمة .. كان هانيمان ثلجي المظهر ، الابتسامة لا تفارق ثغره ، ابتسامة دائمة لا ترتخي أبدا ، لكنني أكرهها .. انه يرتدي هذه الابتسامة كما يرتدي حذاءه .. ويخلعها عندما ينام .. لحظات خاطفة كنت أرمقه وهو وحده .. فينسى نفسه .. وتختفي الابتسامة ويحل محلها بريق شيطاني ، ووجه مكفهر .. يبدو أنه كان يمل التمثيل الطويل الذي طبع عليه .. وهو يتقاضى مرتبا كبيرا من مجلس الكنائس الاعلى في أوروبا .. غير متزوج .. أقول جاءني ابان محنتي وهمس في أذني :

ـ « أنت لطيفة جدا يا جاماكا .. »

ـ « أشكرك .. »

ـ « منذ أن رأيتك تعملين هنا وأنا أرمقك من طرف خفي »

هزرت رأسي قائلة :

ـ « أعرف .. »

ضحك وقال :

ـ « حسنا .. وآمنت أنك فتاة طيبة .. »

ـ « لم تقل لي هذا من قبل .. »

ـ « الرجل يستطيع أن يكبت عواطفه نحو المرأة ·· لكن الى حين ·· »

والتفتت اليه قائلة :

ـ « ماذا تريد مني بعد أن طردتني من العمل ·· »

ـ « أنا لم أطردك ·· »

نظرت اليه في دهشة ، وازداد تدهشتي حينما سمعتــه يقول :

ـ « فقط أردت أن أحتفظ بك لنفسي ·· »

هتفـــت :

ـ « كخادمة ؟؟ »

ضحك وحاول أن يلمس يدي ، ففررت منه ، لكنه قال :

ـ « بل أردت أن أتزوجك »

صرخت :

ـ « تتزوجني ؟؟ »

ـ « نعم ·· »

ـ « أنظر الى وجهي جيدا ·· انني سوداء ·· افريقية مــن ساحل العبيد ·· هل نسيت ؟؟ »

ـ « كلنا اخوة يا جاماكا ·· »

ـ « هل نسيت أنني مسلمة ؟ »

ـ « هذا أمر بسيط يمكن التغلب عليه »

ـ « كيف ؟؟ »

ـ « تتركين هذه الخرافة ·· »

صعقت لجرأته ، وهممت أن أصفعه ، لكن يدي لم تتحرك ، لم يتعود الاسود أن يصفع الجنس الابيض ، حتى كنائسنا كانت لنا خاصة ·· للسود كنائسهم وللبيض كنائسهم في أغلب الاحيان وقلت

في سخرية :

ـ « من قال ذلك يا دكتور هانيمان ؟؟ »

ـ « لا يعقل أن تتركي المسيحية هكذا ببساطة ٠٠ لقد ظلت الكنيسة تعلمك وتعظمك وتدربك سنوات طويلة ٠٠ »

ـ « أنا لم أبع نفسي للكنيسة ٠٠ لست رقيقا ٠٠ انني انسانة وأختار ما أؤمن به ٠٠ »

لم يرتح لكلماتي ، اختفت الابتسامة المصطنعة ، واكفر وجهه ، واحتقن جلده الثلجي ، وصرخ وهو يقهقه :

ـ « هل ظننت فعلا أنني أريدك زوجة ؟؟ كـــان مجـــرد مزاح ٠٠ »

ـ « كنت أعرف أنكم بلا قيم محترمة ٠٠ » نظر الي بعينـــي وحش مفترس :

ـ « ستدفعين الثمن غاليا »

ـ « أنا لم أرتكب جرما ٠٠ »

ـ « لم يزل كل شيء بأيدينا ٠٠ »

ـ « الامر بيد الله ٠٠ »

ـ « والله معنا ٠٠ »

ـ « لقد شوهت معنى الالوهية في أفكاركم ، وخلطموهـــا بنزواتكم ٠٠ أنتم لا تعرفون الله ٠٠ فقط تحسنون الكلام ،وتجيدون الزيف والتمثيل ، أنتم أساتذة الخديعة ٠٠ »

ولم تجد جاماكا مفرا بعد أن طال احتجازي خلف الاسوار سوى أن تهرب من المدينة الى مدينة أخرى ، لقد ذهبت الى « زاريا » وغيرت اسمها ورداءها ، أصبح اسمها « سعيدة » ولبست «اللايا» و « البوبا » ، وتحجبت ، وذهبت لتخدم في قصر أرملة لثري كبير ، وهناك نعمت بغير قليل من الهدوء والاستقرار ، وتعلمت الفرائض

من صوم وصلاة ، وبعض المبادىء الاولية في الاسلام ، وروت لها الارملة الحاجة الكثير عن الاراضي المقدسة وقصص الانبياء وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وكرامات الاولياء ، اذ أن الكثيرين من أهل نيجيريا يعشقون التصوف والمتصوفين ، ولديهم كثير من الاقاصيص عن رجال الله قد تبلغ في كثير من الاحيان مبلغ الخرافات التي لا يصدقها عقل ...

وكانت تتساءل من وقت لاخر عن الاحداث التي تهز البلاد ، وحركات المقاومة والاغتيالات التي أصبحت تبث الرعب في القلوب ..

كانت تشعر بحلاوة الصبر ، وجلال الايمان في هذه الاسرة الهادئة ، ولم تكن تتصور أن العيون تتابعها عن كثب ، وأن الحقد التبشيري يلاحقها .. كان عجيبا أن يهتموا بفتاة من الايبو لا وزن لها هذا الاهتمام كله ، لكن القضية على ما يبدو لم تكن كذلك .. كان اعتناقها للاسلام يعني الهزيمة لهم ولجهودهم ، ويعني السخرية منهم ومن سلطتهم .. ذات مساء دق الباب رجل من الشرطة :

– « نريد جاماكا »

– « ليس عندنا أحد بهذا الاسم .. »

– « تلك هي صورتها الفوتوغرافية .. »

– « ودقق الحارس النظر وقال :

– « هذه سعيدة .. »

– « هي بعينها جاماكا .. »

– « لكن لماذا تسأل عنها .. »

– « هي متهمة بالسرقة والتبديد .. »

– « مستحيل .. انها كالملاك البرىء .. »

قهقه رجل الشرطة :

ـ « الحمد لله أنها لم تغرر بكم ٠٠ »

وسيقت المسكينة بين النواح والعويل والتوسل الى الحبس التحفظي ، لقد حزنت ربة البيت من أجلها ، لكنها لم تستطع أن تحميها ، وأمام دموع سعيدة وتوسلاتها وكلت الارملة محاميا للدفاع عنهـا ٠٠٠

وعلى الرغم من أن سعيدة ـ أو جاماكا ـ كانت محجوزة خلف الاسوار بتهمة مخلة بالشرف الا أنها أكدت لي فيما بعد أنها كانت تشعر بسعادة لا حد لها ، كانت تدرك بوضوح أن ما تتعرض له من عنت وعناء كله ظلم بين ، وليس هناك من سبب لهذا كله سوى اسلامها ٠ لقد بلغت مرحلة التضحية والايذاء في سبيل الله ، لكم حدثتها ربة البيت عن بلال الحبشي وما قاساه من صنـــوف العذاب ، وعن زينب بنت الرسول الاعظم التي أجهضوها وهـم يضربونها ، وعن نساء كثيرات فضليات في فجر الدعوة الاسلامية ان سعيدة تشعر بالايمان أكثر من اي وقت مضى وبحلاوة التضحية ، وروعة الايمان ، وتجد في العقاب راحة نفسية لا حد لها ٠٠٠

قال لها المحقق :

ـ « أنت متهمة بسرقة عدد من الالات الطبية من المستشفى ، وبعض الادوية الغالية الثمن والمسجلة عليك في دفتر العهدة ٠ والدكتور هانيمان يتهمك بسرقة حافظة نقوده أثناء تواجده فـي غرفة العمليات الجراحية ، فما قولك ٠٠٠ »

وابتسمت سعيدة قائلة : ـ

ـ « انهم يكذبون ٠٠ القصة بدأت منذ ٠٠٠ »

وأخذت تروي تفاصيل كل شيء ، وبعد أن انتهت من حديثها زجرها المحقق وهو من قبائل الايبو مثلها ، وقد تلقى تعليمه في المدارس التبشيرية ، ثم أكمل دراسة الحقوق في بريطانيـــا ،

زجرها المحقق قائلا :

ــ « ان هناك ثلاثة من الراهبات الممرضات يشهدن ضدك ·· »

هتفت في ذعر :

ــ « راهبات ؟؟ مستحيل ··· انهن لا يكذبن »

ــ « أنت اذن لا تطعنين في شهادتهن ·· وهذا يدينك ·· »

ــ « يا الهي ! ··· »

ــ « اعترفي ·· هذا أفضل ·· »

وعادت بها الذكريات الى الوراء ، عندما اعتنقت النصرانية ، وتركت الوثنية ، لم تتعرض لشيء من الزجر أو الاضطهاد ، بل على العكس تماما من ذلك ، فقد فتحت الارساليات التبشيرية لها الباب على مصراعيه ، وهبتها فرصة التعلم والتوظف ، وانهالت عليها الهبات ، وكانت تحظى دائما بمزيد من الرعاية والاهتمام ، أما بعد أن اعتنقت الاسلام ، فلقد أصبح الامر جد مختلف ، أغلقت الابواب في وجهها ، وألصقت بها التهم ، وحوربت في رزقها وشرفها ، وجند لها عدد من القذرين لملاحقتها والبحث عنها وها هى تقف الان على أبواب السجن ·

قال المحقق :

ــ « هيه ، فيم تفكرين ؟؟ ألم تتعلمي أن الاعتراف يغسل الذنوب »

ــ « بل تعلمت في ديني الجديد ، أن الندم المقرون بالتوبة ، والذي يتبعه عمل صالح هو الذي يمحو الخطايا ·· مجرد الاعتراف لا يعني شيئا ·· »

هز المحقق رأسه وقال :

ــ « اذن أنت تقرين بالسرقة ·· »

ــ « أقول أن الذين يحاولون الصاق التهمة بي انما هم

المجرمون ·· »

ثم أمسكت بذراع المحقق وهتفت قائلة :

- « هم يجرمون في حق وطننا ، وحقك أنت أيضا كرجل قانون ··· »

« وأخيرا في حقي أنا المظلومة ·· »

وانهمرت دموعها غزارا ، وطأطأ المحقق رأسه ، وهمس :

- « جففي دموعك ·· معذرة يا جاماكا ·· »

هتفت من بين دموعها :

- « اسمي سعيدة »

- « معذرة يا سعيدة ·· أنا لست كاهنا أو قسيسا يربت على رأس الخطاة ، ويجلب لهم الغفران ·· أنا رجل قانون ، اتعامل بالقرائن والشهود والادلة ·· قد تقعين تحت طائلة العقاب ظلما ·· لكن لا حيلة لي في الامر ·· ولهذا فأنا أصدر أمرا بحبسك رهن التحقيق ·· »

وتمتمت سعيدة في هدوء :

- « ان في قلبي شعورا من الابتهاج لا يعرفه الا المؤمنون الحقيقيون ·· »

نظر المحقق اليها نظرة طويلة وغمغم :

- « سأصلي من أجلك ·· »

- « أنا أعرف الصلاة جيدا ·· وليس بيني وبين الله وساطات ·· »

انه رب السود والبيض ·· أشعر به سبحانه أقرب الي من حبل الوريد ·· وسأنتظر رجلي حتى يعود ·· وعندما يعود عثمان ·· ستورق حياتي بأجمل الاحلام ·· وستبتسم لي الزهور ·· ونغني للحب الحقيقي ·· وللسعادة ·· »

١٥

كانت بلادي تجتاز فترات عصيبة من تاريخها المليء بالشجن ، والذكريات ، السذج والجهلاء يسقطون في حبـــائل الشيطان ، فيؤججون نار الفتنة والانتقام ، والقتلى في كل مكان ، والحكومة العميلة تورث الاحقاد ، وتبث الفرقة ، ونحن نعيش فى السجن لا نستطيع أن نغير وضعا ، أو نسهم بجهد عملـــي في تحويـل الاحداث ، والحكام الجدد يضربون في حمق وجنون ، لم يعد لهم من هدف سوى أن يبقوا على كراسي الحكم ، وشغلتهم هذه الغاية عن كل شيء آخر يتعلق بأمن الوطن وسلامته ·· أما قضايا الامة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فقد أصبحت مجرد شعـارات وخطب يتسلى بها الحاكمون ، وغدت وعودا لا تغني ولا تسمن ، فانتشر الفساد ، وعم اليأس ، وبدت البلاد وكأنها مريض يعاني من مرض عصبي ، تتناوبه التشنجات ، أو يغرقه الذهـــول ، أو يسيطر عليه الهذيان ، ولم يعد هناك أدنى شك في أن العسكـر الحاكمين أصبحوا لعبة في أيدي القوة الاستعمارية الخفية والظاهرة، ذلك الانتكاس الوطني سوف يعاني شعبنا منه طويلا لا شك ، لان بذور الفساد والضياع التي يدسها الخونة في أرض المجتمع ، سوف تنبت أسوأ الثمار ، وحتى لو خلع هؤلاء الخونة ، فسيبقى أثرهم بعد حين ، وسيتطلب الخلاص من عبثهم وقتا ليس بالقصير ·· ولم يعد لشعبنا من قضية بالتالي سوى أن يتخلص من هذه الشرذمة

الحاكمة ، ايرونسي وبطانته ، وتحولت قضية الوطن بكاملها الى صراع على السلطة ، وهل في استطاعتي وأمثالي أن نحول مجرى الاحداث هكذا ببساطة وسرعة ، ان الامر يحتاج الى نضال طويل ومستمر ، وهذا ما يجب أن أوطن عليه نفسي منذ الان .

ولاحظت أن شيخنا « عبد الله » يحدثنا دائما عن الصبر ، ويحاول أن يفسر لنا معناه الشامل المحيط ، فليس الصبر كما يقول مجرد استسلام ورضى بالواقع ، ولكنه فترة عمل وتفكير وتدبير دون تعجل جني الثمرة ، وليس الصابرون كتلا من الاحجار ، أو تماثيل صماء ، ولكنهم أولا وأخيرا رجـــال مؤمنون ، يصمدون للعواصف ، ولا تزعزعهم النكبات ، أو تونسهم الكـــوارث ، أو تنسيهم الاضطهادات الغاية الكبرى التي نذروا أنفسهم من أجلها ، وكان يقول :

ـ « عاش نوح عليه السلام يدعو بين قومه ألف سنة الا خمسين عاما .. ولم يكن الطوفان شرا ، بل كان عملية تنقيـــة للشوائب .. وكان اختيارا . لم يرغم نوح أحدا على الركوب في سفينته .. أختار الاشرار مصيرهم ، وهدى الله الاخيار الى مصير آخر .. وعندما قال الله :

« يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء اقلعـــي ، وغيض الماء ، وقضى الأمر واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

عندما حدث ذلك .. ولد مجتمع الصفوة الطاهرة .. التي تعرف حق الله .. »

قلت لشيخي في شيء من الضيق :

ـ « ومتى يأتي الطوفان يا مولاي ؟ »

ـ « انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ·· »
ـ « أنصبر كما صبر نوح عليه السلام ؟؟ »
ابتسم شيخي في رضا وقال :
ـ « سبحانه وتعالى ·· كل شيء عنده بمقدار ·· »
ـ « آمنت بالله ·· »
ولم تكن أيام السجن تمر هادئة دائما دون عواصف ، فقد كانت تجد أحداث مزعجة بعض الشيء ، فهناك تاجر يعيش معنا وصلته أنباء أخيرا ، تؤكد له أن تجارته قد بارت ، وأنه قد فقد رأس ماله ، وجاء الى شيخنا يبكي :
ـ « أنظر يا مولانا ·· لقد ضاع تعب العمر كله في لحظة ·· خسرت كل شيء ، غدر بي الصديق ، وخانني الشريك ··وأصبحت لا أملك شيئا ·· »
قال شيخنا في هدوء :
ـ « أنت تعرف الطريق »
ـ « أنا لا أعرف سوى أنني قد أصبحت مفلسا ·· »
ـ « أنت تعرف الطريق »
ـ « أي طريق يا مولانا ·· »
ـ « ستبدأ من جديد ·· المؤمن الحق لا يفكر في الفقر والغنى بقدر ما يفكر في أن يسير في الدنيا على هدى أوامر الله ·· وهذا هو معنى أنك ستعيش في رغد دائم ·· »
ـ « أما كان من الافضل يا شيخي أن أبتعد عن هذا العناء وأسهر على تجارتي ، وأستطيع بذلك أن أساهم بقدر مادي أكبر في المعركة ·· »
وتربع شيخنا وأخذ يرتل بضع آيات من القرآن الكريم ،تشرح للمؤمنين كيف أن الاباء والابنـــاء والامـوال والتجـــارة التـي

نخشى كسادها ، اذا كان هذا كله أحب الينا من الله ورسوله وجهاد في سبيله ‥ فقل على الدنيا العفاء ، ثم قال الشيخ :

ـ « التجارة الحقة هي الجهاد في سبيل الله ‥ »

ثم اتجه شيخنا مرة أخرى الى السماء ورفع كفيه وهتف داعيا :

ـ « اللهم لا أسألك الرزق فقد فرغت منه ، ولكني أسألك البركة فيه »

تلك صورة من صور الاحزان التي يعمر بها سجننا القاسي المظلم ، وهناك من فقد فرصة التعليم ، وتعطل عن اللحاق بجامعته في الخارج ، ومعنا بعض الطلبة الذين يتلقون العلم في الازهر في جامعة الزيتونة وغيرها ، هؤلاء جميعا منعوا من السفر وسيقوا الى السجن ، وهناك من طلبت زوجه الطلاق ، وهناك من تشرد أهله بعد أن حبس عائلهم الوحيد فمضوا في الطريق يبحثون عن عمل كي يقتاتوا من وزائه ‥ والى جانب هذه الصورة القاتمة ، كانت توجد قصص للبطولة والفداء تدعو الى الشرف والفخار ‥

كانت هذه التجربة ـ أعني دخول السجن ـ تجربة ثرية مليئة بالاحداث والانفعالات والافكار ، كانت شيئا جديدا في حياتي ترك فى نفسى آثارا لا تمحى الى الابد ، ان الايام التى أقضيها خلف الاسوار تعني « مرحلة تعليمية » من طراز آخر غير الذي يعرفه الناس ، يخيل الي في بعض الاوقات أن الذين لم يدخلوا السجن في سبيل المبدأ قد فاتهم خير كثير ، أعني قد خسروا نوعا من المعرفة والتجربة لن يجدوه في أي مكان آخر ، حتى ولو نالوا من الشهادات والاجازات الدراسية أعلاها ، أو قرأوا آلاف الكتب ‥

قلت لشيخي :

ـ « أكان من الضروري أن يساق يوسف عليه السلام الى

السجن ؟؟ »

ـ « ارادة الله لا تناقش يا عثمان •• ولا تسألني مرة أخرى أكان من الضروري أن يباع بدراهم معدودة ويصبح عبدا •• كل ما يمكنني قوله هو أن الابتلاء هو الاخر نعمة قد ينعم بها الله على عباده الصالحين •• العبرة بالطاعة •• العبرة بالنتيجة •• »

وسادت فترة صمت قال شيخي بعدها :

ـ « ألا يمكن أن تكون الفتنة التي تعرض لها يوسف على يد زوجة العزيز أعنف من ليالي السجن ، وأشق من أيام العبودية بالنسبة ليوسف ؟؟ »

قلت في دهشة :

ـ « لا أعرف •• »

ـ « ان كيدهن عظيم •• »

ـ « ودانت ليوسف رحاب مصر ، أتدري لماذا ؟؟ »

ـ « لماذا ؟؟ »

ـ « كان في سجنه الاسود يدعـــو الى الله ويقول : « يـا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟؟ »

تمتمت في استسلام :

ـ « الله الواحد القهار •• »

ـ « أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق »

ـ « تعالى سبحانه عما يقولون علوا كبيرا •• »

وجيء بالطعام ونظر اليه شيخي وقال وهو يبتسم :

ـ « أخاف أن أشبع فأنسى الجائـع •• هكذا كـان يقول يوسف يا أبنائي ••• وأنا اليوم صائم •• »

ثم وثب شيخي ، ونادى بأعلى صوته :

ـ « سقط ايرونسى ايرونسى وتشوكوما •• والمتمردون »

واحتشدنا حوله في انبهار ، وقلت :

ـ « ماذا ؟؟ هل حدث ذلك فعلا ؟؟ »

ابتسم الشيخ وقال :

ـ « لقد سقطوا منذ زمن بعيد »

ـ « لكنهم ما زالوا يحكمون يا شيخى •• »

وأشار شيخى بيده اليمنى قائلا :

ـ « أنظروا •• هذه الاسوار •• وأبراج الحراسة •• والعسكر يحملون السلاح ••• وصراخ المعذبين يتردد صداه •• آه •• أنتم لا تنظرون الى بعيد •• عيونكم دائما على المعسكر والاسوار والاسلاك الشائكة وسياط الجلادين •• أنظروا الى بعيد •• لقد سقطوا جميعا منذ أن انتهكوا حرمة الانسان •• وداسوا الشريعة•• كل من تنكر الى الله •• ولاخوته من البشر •• أصبح ساقطا •• »

ثم التفت صوبى وقال :

ـ « اى عثمان ••اذهب الى قائد السجن وقل له نريد ان نصلي الجمعة •• »

ـ « أنت تعلم يا شيخى أنه رفض ذلك قبل الآن •• »

ـ « حسنا •• فلسوف أذهب اليه بنفسى •• »

الحقيقة اننا توجسنا خيفة ، لم نكن نريد ان يعرض الشيخ عبد الله نفسه لهذا الامر المحرج ، فقد يعتدى الطغاة عليه بالكلام الجارح أو يضربونه ، وأصبحنا نرتجف ، ولم يكتم بعضنا نقده الشديد لهذه الخطوة من الشيخ ، لكننا لم نستطع أن نواجه الشيخ برأينا صراحة احتراما لرأيه •

عندما ذهب لقائد السجن نظر اليه القائد شذرا وقال :

ـ « ماذا تريد ؟؟ لن نستطيع أن نفعل لك شيئا بالخارج ••»

ـ « بل جئت أطلب الصلاة •• »

ـ « نحن لا نمنعك ذلك ٠٠ »
ـ اليوم الجمعة ٠٠
ـ « لا مانع ٠٠ على ان يكون بدون خطبة ٠٠ »
ابتسم شيخنا :
ـ « الخطبة ٠٠ ركـن أساسى ٠٠ بدونهـا لا تكون صلاة الجمعة ٠٠ »
وكم كانت دهشتنا عندما قال القائد :
ـ « أريد أن أقرأ الخطبة أولا ٠٠ »
ـ « لماذا ؟؟
ـ « لاطمئن على انها ليس بها أيـة مسائل سياسيـة ٠٠ »
ـ « حسنا ٠٠ » يس والقرآن الحكيم ، انك لمن المرسلين ٠ »
واستمر الشيخ يرتل صورة « يس » ، وما أن انتهى منها حتى قال :
« هذه هى الخطـبة ٠٠ مضافا اليه بعض الاركان والشروط الخاصة بشكل الخطبة ٠٠ »
قال الرجل دون ان يفهم شيئا يذكر :
ـ « لا مانـع ٠٠ المهـم ألا تذكروا شيئـا عن الحكومـة أو ايرونسى ٠ »
ـ « لك ذلـــك ٠٠ »
وكان هذا أول حشد نكتمل فيه فـى السجن ، التقى كـل الرجال بشتى أفكارهم وآرائهم السياسية ، وأخذ شيخنا يحدثنا طويلا ، وكانت كلماته تنفذ الى قلوبنا ، وكنا نستمد من كلماته كل ما نريد ، وكانت انعكاسات الخطبة ، ومدلولاتها الرمزية أوقع بكثير من الكلام المباشر عن وضعنا ووضع شعبنا ٠٠ وكانت الدموع تسيل على خدودنا وشيخنا يردد فى دعاء الخطبة :
ـ « اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا ٠

« اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه ••
« اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا
وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا
وأصلح لنا آخرتنا التى اليها معادنا ••
« اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ••
وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ••
اللهم آمين •••• »

انني كلما سمعت مثل هذه الكلمات الطيبة أشعر بها تنفذ من أذنى الى قلبى ، وتتمشى فى عروقى ، وتملأ كيانى كله ، وأتمنى فى هذه اللحظات أن يسمعها مثلى كل انسان أعرفه أو لا أعرفه دائما أدعو الله أن يستظل البشر كلهم بظل الايمان ••• ولهذا كنت أتمنى أن تكون«سعيدة»الى جوارى ، وتنعم بهذه الخيرات التى يفيض بها لسان سيدنا ومولانا الشيخ عبد الله •

١٦

جاءتنى رسالة من « سعيدة » ، يا الهى ٠٠ لم أكن أصدق أن ذلك سوف يحدث فى يوم من الايام ، روت لى فيها الكثير مما كنت أجهله ، ولقد حمل الى الرسالة أحد العسكر وهو من قبائل الهوسا، حملها خفية ، ولست ادرى هل فعل ذلك تطوعا أو تقاضى ثمنـا باهظا عليها ؟ هذا لا يهم الآن لقد فرحت ايما فرح بهذه الرسالة ، وذهبت الى مكان متعزل كى أقرأها على مهل ، وأسعد بقرائتهـا ، الرسالة الخاصة بالنسبة للسجين شىءذو قيمة كبرى ٠٠ وتكون أكثر قيمة عندما تأتى ممن أحب ٠٠ وجلست أقرأ الرسالة :

« أيها الحبيب الغالى ٠٠٠

ان معاول الندم تضرب رأسى كل مساء ، أقول لنفسى دائما لماذا لم ألحق بركب عثمان منذ أن عرفته ؟؟ لماذا تأخرت عن الارتباط بـــه ؟

لكنى أعود وأقول ، ان لله حكمة قد تخفى علينا نحن البشر الضعفاء ، ولكل أجل كتاب ٠٠ أنا لم أيأس برغم ما أعانى من عذاب واضطهاد ، ولقد فكرت ألف مرة قبل أن أبعث اليك بهذه الرسالة ، وذلك لانى لا يصح ان ابعث اليك بما يعكر صفوك ، أو يبعث الضيق فى نفسك ٠٠ لكن موقف صديقك « نور » كان غريبا غاية الغرابة منذ البداية ، فمنذ أن عرفته أعطف عليه ، ربما لما ألاحظه عليه من

تعاسة ، وما ألمحه فيه من سخرية محببة ، وخفة دم ، وحاول هو أكثر من مرة أن يستغل هذا العطف ليحمله أكثر مما يحتمل ، توهم أنى أحبه ، وهذا ما لم يخطر ببالى قط ، وعندما عرفتك وجدته يتقبل الامر بشىء من عدم الاكتراث ، بل اعتبره نوعا من الموضوعات الطريفة التي تجلب المرح والتسلية ، لكنى فوجئت به ذات مساء بعد أن قررت أن أشهر اسلامى ، وأخطط للزواج منك ، فوجئت بـــه يأتى الى ويقول :

ـ « لقد خلقنا الله لكى نعيش معا الى الابد »

ـ « لا أفهمك يا نور »

ـ « جاماكا ••• أنا أحبك •• »

وابتسمت له ، وقلت :

ـ « لكن الامر لا يتعلق بى »

ـ « أعرف •• تحبين عثمان ؟؟ »

ـ « هذا حق ، والامر يتعلق بقلب الانسان »

ـ« انه لا يصلح لك »

ذهلت عند سماعى لهذه الكلمات من صديق عزيز عليك ، عندئذ رأيت أن أكون حازمة وواضحة أكثر فقلت له :

ـ « كل ما فى الامر اننى أحبه ولا أحد غيره •• »

ـ « تعلمين يا « جاماكا » انه سجين ، ومستقبله مظلم ، وهو انسان مغلق •• أورثه التعصب للدين ضيقا فى الافق •• »

أكفهر وجهي وهتفت :

ـ « انت تطعن صديقك »

ـ « أنا أحبه ••• وهذا هو رأيى فيه •• »

ـ « أنت لا تعرف جيدا لماذا يتحاب اثنان ، ألا يجوز أن مثاليته هي نقطة الجذب فيه ، ومع ذلك فهو انسان منفتح ذو قلب ٠٠ رحب الفكر ٠٠ »

وبدا على ملامحه الغضب وقال :

ـ « ان ما تظنينه سعادة ما هو في الواقع الا حماقة وتعاسة ٠٠ »

ووجدتني أقول له :

ـ « أنت آخر من يصلح لكي يكون زوجا ٠٠ »

انصرف عني محتدا ، ومع ذلك لم يكف عن ملاحقتي ، وتسبب لي في كثير من المتاعب ، في الواقع هو انسان غريب ذو نزوات ، يدوس القيم بكل بساطة ، وتأكد لي أنه ضالع في التعاون مع أجهزة الامن والاستخبارات الحاكمة ، وأشيع عنه الكثير ، وأصبح الناس الذين يعرفونه يمقتونه أشد المقت ، وعزمت أن أخبرك بالامر في زيارتي لك ، لكنني أحجمت في آخر لحظة ، وكان يمكن أن يظل الامر طي الكتمان ، لولا أن انتقامه قد تعدى كل تصور ، أكنت تعتقد أنه قد تقدم يدلي بشهادته ضدي في القضية الظالمة التي دبرها دكتور « هانيمان » وعملاء الارساليات التبشيرية ، نظر في صلافة وجرأة وقال :

ـ « رأيتك بعيني هاتين تبيعين الادوية والآلات »

يا الهي ، ، كيف يخون عطفي عليه ، ويتنكر لصداقته معك ، لكن الذي يبيع نفسه للجلادين لا يستغرب أن يفعل ذلك ، غير اني شعرت بأسى بالغ ، ومرارة قاتلة ، وعاد يقول :

ـ « وكان عثمان يستخدمك في بعض تحركاته ضد الدولة تحت ستار انتمائك للايبو ، وعملك مع التبشير ٠٠ »

ـ « أنت تعرف ٠٠ أن هذه كلها ترهات يا نور »

ـ « وأنت لا تستحقين اي عطف أو تضحية ٠٠ »

ـ « أنت تظلمنى بلا مبرر »
ـ « سأحطم حياتكما ٠٠ أنت وعثمان »
ـ « عثمان لم يسىء اليك »
قهقه قائلا :
ـ « كان غنيه ٠٠ وكان ينظر الى كتابع ٠٠ وكان عطفه يثيرنى أكثر مما يبعث على الاحترام والحب ٠٠ »
ـ « لا ذنب له ٠٠ فأنت حاقد مريض ٠٠ »
ونظر نور الى المحقق قائلا :
ـ « سجل ٠٠٠ انها تسبني ٠٠٠ وأنا أطالب بحقى ٠٠ »
وجلست طوال الليل لا يقرب النوم جفني ، المظلومون يحترقون بنيران المظالم صباح مساء ، ويكاد يفقدون الثقة فى كل شيء ، لو كنت داعرة عربيدة ، مستسلمة لذوى القوة والسلطة ، لكنت أميرة ألبس تاجا من التقدير والاحترام ، مجتمعنا تسوده قيم قذرة فى هذه الفترة التعسة ، ولكنى واثقة أن الخير لا يموت ، وان العذاب الذى نعانى من مصيره الى الانتهاء ، وأعود أنظر الى قضيتى فلا أجد لما أعانيه من سبب سوى اننى اخترت طريقى فى العقيدة التى آمنت بها ، واخترت الرجل الذى أحببته ٠٠ أيمكن أن يكون ذلك جريمة أو أساءة الى احد ؟؟

سؤال حائر ظل يتردد فى رأسى حتى أذهب عني النوم ، واورثنى القلق ، لم أر شيئا قبل ذلك فى حياتى كالذى أراه اليوم ، لم أره وسط الوثنيين فى الغابات ، ولا مع الجهلة والعراة فى قرى الشرق أو الغرب ، أو فى صحراء الشمال ٠٠ المدينة تضج بالعفن والكذب والخيانة ٠٠ لشد ما أكره المدينة ٠٠ لو خرجت أنت يا عثمان ٠٠ فستكون جنتي الموعودة ٠٠ ستكون البلسم الشافى لجراحي وآلامي ، انه حلم جميل أحلم به دائما ٠٠ أراك الى جواري

عملاقا قويا ، لا ترهب الخيانة ، ولا تتراجع أمام جحافل التهديد والوعيد ، وتهتف باسم الله كالبطل الاسطورى ، وتمسح عن عيني الدموع ، فأنت سلواي في هذه الايام المضطربة الهائجة »

ولا أريد أنأطوي هذه الصفحات قبل أن أبشرك بأن السيدة التي أعمل في خدمتها ، قد تقدمت بعرض وهو أن تدفع ثمن الادوية والآلات المفقودة ، وبهذا أفرج عني ، وعدت الى قصرها الهادىء أنعم بالاستقرار والهدوء النسبي ، ومع ذلك فان الهواجس تنتابني من آن لأخر ·· كلما دق باب القصر خيل الى أن عملاء الارساليات قد أتوا مرة أخرى يسددون الي اتهامات جديدة ·· او ان نور قد أتى ليثأر لحبه الضائع ·· وان كنت أعتقد أن انسانا هذا شأنه لا يعرف معنى الحب ·· لانه لا يفكر الا في نفسه ·· وأحيانا أخرى أفكر فيك ، وأتوجس خيفة من ان تمتد اليك يد الطغيان بسوء ·· وليس لى مفر من هذه الافكار والبلبلة الا ان ألجأ الى الصلاة وأضرع الى الله بدموع التوسل والرجاء ·· وأشعر بعدئذ ان قلبي قد امتلأ باليقين ، وان الآمال أقرب ما تكون الى الازدهار والتحقق ·· »

* *

وطويت الكتاب ·· وظللت أعيد قراءته مرات ·· لكل عبارة طعم ومذاق خاص ، ان « جاماكا » ـ أعني ـ سعيدة ، قد أترعت جانبا من حياتي بمعاني جديدة لم الفها قبل ذلك انها تجربة أثرت وجداني وروحي ، وكان لا بد أن تحدث ، فهي ضرورة بالنسبة للاكتمال الذاتي او الشخصي ·· لكنى شعرت بعجز قاتل محير ، تمنيت في هذه الساعات ان اعثر على نور واؤدبه ·· ألقنه درسا لم يتعلمه طول حياته ، وماذا كنت فاعلا وراء هذه الاسوار والاسلاك الشائكة وعدت الى شيخي عبد الله ، والغضب يضطرم في نفسي :

ـ « شيخي ·· إن نور قد بلغ المدى في الوقاحة ·· ويسيء

الى المحصنات من النساء »

هز شيخى رأسه قائلا :

ـ « اطمئن ·· هى فى حصن حصين ·· »

ـ « وكيف تنجو من عالم كله ذئاب ؟؟ »

ـ « هناك الاتقياء الاخفياء ·· وسعيدة ان هى اعتصمت بدينها كفاها شر الذئاب ·· »

ثم رفع رأسه الى السماء وهتف بالآية القرآنية :

ـ « أليس الله بكاف عبده ؟؟ ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فماله من هاد ·· »

تمتمت فى ارتياح :

ـ « صدق الله العظيم ·· »

وواتتنى فكرة فقلت لشيخى : ـ

ـ « مولانا ·· اننى أعرض عليك رأيا »

ـ « قل ، واستعذ بالله من الشيطان الرجيم ·· »

ـ « ألا يمكن أن‌تخدع هؤلاء الحكام ؟؟ »

ـ « تخدعهم ؟؟ كيف »

ـ « الحرب خدعة ·· »

ـ افصح يا عثمان ·· »

ـ « أعنى أن نظهر تأييدنا للحكومة ·· ثم ننال العفو ، ونخرج من هنا لنبدأ المعركة ·· »

ضحك شيخى ضحكة حزينة وقـــال :

ـ « العفو من الله يا عثمان »

ـ « نعـــم ·· »

ـ « ويوسف ـ قال ابان الازمة ـ عليه السلام : رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه ·· »

ثم عاد شيخى يرتل فى صوت يمازجه البكاء : .

ـ « ٠٠٠٠ فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين ٠٠ »

والتفت الي قائلا :

ـ « ألا تعرف طريق الحرية ؟؟ »

ـ « دائما أريد أن أعرف يا شيخى ٠٠ »

ـ « التوحيد هو طريق الحرية ٠٠ الله وحده هو حاكم هـذا الكون ٠٠ وهو المتصرف فيه ٠٠ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ٠٠ استغفر الله يا عثمان ٠٠ وقم وتوضأ فقد أذنت الشمس بالمغيب واقترب موعد الصلاة ٠٠ وانظر الى الافق وهو يشيع الشمس وتذكر ربك ٠٠ وسبح باسمه بكرة وعشتيا ٠٠ »

وتطلعت الى السماء توشحها السحب الذهبية ، وبدا لى ان قطعة صغيرة من السحاب تضىء ، ودققت البصر فيها ، خيل الى اننى ارى وجه سعيدة وهى تبتسم وسط السنة اللهب ، ابتسامة صامدة ٠٠ ذهبية الاشعاع ٠٠ تنبض بالروعة والحب والتابي على الفناء٠٠

وشعرت بيد تلمس كتفي ، فافقت من حلمي ، ونظرت ، كان عبد الرحيم يقف خلفي ويقول :

ـ « يبدو انك تترنم بالشعر ٠٠ »

١٧

أدرك شيخى اننى كثيرا ما أشعر بالملل ، كان ذكيا ذا فراسة، ينظر الى وجهى ، او يلتقط كلمة من كلماتى العابرة ، فيدرك ما يعتمل فى نفسى ، وبدا لى كأنه محلـل نفسانى من الطـراز الاول ، عن موهبة فطرية ، وحس غريزى ، والايام تكاد تمضى متشابهة ، ولم يعد هناك شىء جديد يشد انتباهنا ، او يصرفنا عن التفكير المحزن فى المستقبل الغامض ، وهمس شيخى فى أذنى قائلا :

ـ « الانسان عجول ، يتمنى أن يضع البذرة فى الارض الخصبة، ثم يغمض عينيه فاذا بها شجرة كاملة تتوجها الثمار ·· هل هذا ممكن يا عثمان ؟؟ »

أدركت ما يعنى فهززت رأسى وكأنى أعتذر ، فاستطردت :

ـ « نحن نرى اليوم الواحد طويلا جدا ·· »

ـ « أجـــل ·· »

ـ « ان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »

ـ « أجـــل ··· »

ـ « وكل شىء عنده بمقدار ·· »

ثم التفت نحوى وأمسك بيدى قائلا :

ـ « الا تعلم يا عثمان ان الله قال لمريم « وهزي اليك بجذع

النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ‥ »
هل فى امكان بشر أن يهز النخلة فيسقط الرطب ؟؟؟ لكن الله ينفخ من روحه في قدرة العبد الضعيف ‥ فتتحول طاقته المحدودة الى قوة غلابة لا يستعصي عليها شىء ‥ وبعض العبيد الاتقياء يتحولون بالطاعة الى درجة من الصفاء رائعة فيقولون للشىء كن فيكون ‥ »

كأنما شحنني شيخي بزاد روحى لا ينفذ ، فشعرت بأننى أستطيع أن أحقق المعجزات ، وأفعل المستحيل، ونظرت الى السجانين عن كثب ، والى الاسوار العالية الضخمة ، والاسلاك الشائكة ، نظرت الى ذلك كله فبدا لى تافها لا خوف منه ، ولا قيمة له وتمتمت فى يقين :

ـ « انه وحده القوى القاهر ‥ »

ونظر شيخي باسما الى بعيد ، ثم اشار بيده قائلا :

ـ « أنظر ‥ »

رفعت بصرى ، فاذا بجمهرة من المساجين يحتشدون حول عدد قليل من العسكر ، وعلى وجوه الجميع اهتمام ، وساد لغط وجدل وصياح ، وهرولت الى هناك ، وسمعت أنباء عجيبة من فم العسكر انفسهم

ـ « نعم بكل تأكيد سمعت ذلك بأذنى من الراديو ‥ لقد قبض الثوار على ايرونسي والمتمردين الخمسة المعروفين ‥

الدماء تسيل فى الشوارع ‥ قائد السجن شحب وجهه ، وهرول الى سيارته وانطلق لا ندرى الى أين ‥ الرئاسة لا تستجيب لنداءاتنا ‥ »

وتعالت الهتافات والتكبيرات ، واختلطت الانباء ، وفى كل لحظة كان أحد العسكر يأتى الينا بجديد ، هذا يوم لا أستطيع أن

أنساه مدى حياتى ، ان الفرحة التى غمرت قلبى تكفينى طول العمر، أحسست أن الله قد عوضنى عن الايام السوداء الطويلة ، سأعود اليك يا « سعيدة » وسأعرف كيف أؤدب الخونة ·· وتذكرت «نور» ·· ايها الاحمق الذى باع شرفه ودينه ، وداس على قداسة الاخوة ، وحبس نفسه فى اطار ضيق من الزمان والمكان والمطامع الانانية ·· سأتزوجك يا سعيدة ··· وسنذهب الى قبائل « الايبو » ونزور أهلك ، وندعوا للاسلام من جديد ، ونغنى الاغنية الجميلة التى كثيرا ما كان يترنم بها عبد الرحيم ·· وسأقود قوافل الاغنام الى الجنوب ·· نتاجر وندعوا الى الله ، ونعلـم المؤمنين آيـات من القرآن ·· وتذكرت شيخى فعدت اليه مهرولا ··

وجدته مغمض العينين ، والدموع تنسكب من بين أهدابه ، ويحرك رأسه يمنة ويسرة ، ويردد اسم « الله » ، وهتفت فى فرح :

ـ مولاى ·· »

أشار بيـده أن أجلـس ، وأردد معه لفظ الجلالـة ، فقلت :

ـ « سقط الظالمون »

نظر الى بعينين هانئتين وقال :

ـ « فلولا ان كان من المسبحين ،للبث فى بطنه الى يوم يبعثون» صدق الله العظيم ·· »

ـ « قبضوا على ايرونسى ·· »

ـ « القصة قديمة ·· »

ـ « كيف ؟؟ »

ـ « وأورثكم أرضهم وديارهم ·· »

ـ « والعملاء من الايبو واليوروبا والانجليز والمنحرفين مـن الشمال ، يفرون فى كل اتجاه ··· وسنعود الى الحياة من جديد يا مولانا ·· »

ـ « المؤمن لا يعرف شيئا اسمه الموت ·· والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون الجسد يسكن لفترة ، ثم يذهب الى الدار الثانية ·· وهناك نعيم مقيم أو شقاء دائم ، أو عقوبات مؤقتة تطهر المذنبين ، وتردهم الى الرحمة الالهية نادمين تائبين معافين ·· »

كان اليوم مليئا بالمفاجآت ، وكذلك الايام التالية ، لم نكن نعرف فى هذه الفترة للنوم سبيلا الا فى أوقـات قليلة ، وتحـول مجرمو الامس الذين سجنوا فى هذا الجب الى ابطال وفدائيين ، واقرباؤنا أخذوا يتدفقون على السجن من كل جانب ، لكن الاسوار كانت تحجبهم عنا ، غير ان بعضنا كان يصعد الى اعلى ويلوح لهم سعيدا ويؤكد قائلا :

ـ « نحن بخير ·· اطمئنوا ··· » .

وطول هذه الفترة لم يكف شيخى عـن التسبيح والحمد لله ، كان يقول من آن لآخر :

ـ « أصبحت المسئولية أضخم ·· كلما ازددتم قربا الى الله ، ازدادت ثقتكم بالنصر الاعظم ·· »

قيل له : « وما النصر الاعظم يا مولانا »

قالـ « أن ترفرف راية الحق فى كل مكان ، وان تعلو كلمة الله ·· فتحكم علاقات البشر أجمعين ·· »

وتساءل الجميع عن القائد الثائر ، وعدت لشيخى أقول له :

ـ « هل تعرف يعقوب جوون ؟؟ »

ـ « أحد ابناء قبيلتنا ·· انه من الهوسا ·· »

ـ « لكنه نصرانى ·· »

ـ « لعل فى ذلك حكمة يعلمهـا الله ·· انه نصرانى آبـاؤه مسلمون ·· تنصر فى ظروف تعسة ·· أراد الله أن يذوق حلفاء الارساليات التبشيرية والصهيونية العذاب والقصاص على يد رجال

ليسوا مسلمين حتى لا يلصقوا بنا تهمة التعصب ..

اى عثمان .. اى قائد كانت هويته ودينه لا يمكن ان ينتصر الا اذا آزرته أمته .. الشمال مسلمون .. وقد وجدوا ولدا من اولادهم يناجز الطغاة .. لن ينتصر يعقوب جوون الا بمعاونة عمالقة الشمال المسلمين .. والقصة لم تنته بعد .. »

وكان الانتقام اكبر فيما بعد فى مدينة « كانو » فى الشمال ، اذ سيق المتعصبون من الايبو وعملاء الارساليات التبشيرية والصهيونية الى ساحة الموت ، والرعب يكاد يقتلهم ، واريقت دماء كثيرة .. لكم يؤلمنى ان تسيل الدماء مرة أخرى ، وتضيع دم الشهيد العظيم احمدو بيللو هدرا ؟؟؟

أمن العدالة ان يترك القتلة الذين اختطفوا الضباط الابرياء واغتالوهم غدرا ؟؟؟

أيصح ان يعفى عن الجلادين الذين قتلوا ومثلوا وسجنوا الشرفاء الاطهار من ابناء الامة في لحظة من لحظات العمالة والجهل ؟؟

* *

وفتحت ابواب السجن الكبير ..

وخرجنا الى الحرية .. كان شيخنا عبد الله يمضى فى المقدمة .. وما أن خرج الى الشارع ، حتى سجد على الارض لله شكرا ، ورأيت الحشد الكبير يتبعه فيما فعل .. واستقبلتنا عند خروجنا الاغر ، الاغانى والاهازيج الشعبية ، ووجدنا عددا من رجال الطرق الصوفية بأعلامهم وشعاراتهم الجميلة تزحم الطريق وحمل شيخنا الى جواد أبلج والطبول تدق من حوله .. الاجسام الفارعة السوداء ترقص فى سعادة ، والتواشيح الدينية يتردد صداها فى الآفاق .. لشد ما تغير وجه البلاد فى أيام معدودة ، ولاحظنا ونحن بعيدين عن السجن ان سيارات مقفلة تسوق اعوان الظلم الى نفس المكان

الذى كنا فيه ·· سبحانك يا ربي ·· ونظر الناس الى الحدث الكبير نظرة معينة ، فالحكام الطغاة الدمويون قد سقطوا ·· وهذا شيء رائع ، والقيود قد فكت ، وانطلق رجال الدعوة الاسلامية يتكلمون فى حرية ·· كان يعقوب جوون ابنا بارا للهوسا المسلمة ، على الرغم من ان الظروف قد جعلت منه معتنقا للديانة المسيحية ·· لقد كان ولاؤه لشعبه اكثر من ولائه لدينه ·· وماذا يريد الدعاة المسلمون ؟؟

انهم يريدون جوا من الحرية الحقة لكى يقولوا كلمتهم ·· ولا يريدون حاكما يرغم الناس على اعتناق عقيدة ما بالاكراه ·· ولقد بدا ان الحرية قد تحققت وهذا فى حد ذاته نصر كبير لرجال العقيدة المؤمنين ···

وما ان استتبت الامور حتى اتى القائد الجديد الى بيت شيخنا، كانت مفاجأة سارة للجميع ·· انحنى أمام شيخنا فى أدب وقال :

ـ « جئت مهنئا ·· »

ـ « أهلا بك ·· »

وعاد القائد يقول :

ـ « أردت ان اقول انني ما جئت الا لجمع شمل نيجيريا كلها، ولرد اعتبار « الهوسا » وتحريرها من القهر الظالم الواقع عليها ·· اريد الحرية والوحدة والسعادة للجميع ·· هذا هو دورى الذى اريد ان أؤديه حقيقة ·· وعليكم انتم أن تضيئوا الطريق ·· كل حسب أسلوبه لتصل الامة الى آمالها المرتقبة ·· »

ولم يقل شيخى سوى كلمة واحدة جامعة :

ـ « كن مع الله يا يعقوب »

ومشيت فى المدينة انظر الى بيوتها وحوانيتها ومساجدها وكنائسها ، وأتملى الناس فى الشوارع فى لهفة غريبة ، وكأنى

مخلوق عائد من كوكب آخر ، لكل شيء مذاق حلو تستشعره روحى ... حتى الاغنام والجمال والجياد والحمير بدت لى مخلوقات لطيفة روحى تحلق فى كل الانحاء .. وتسمو الى السحب ، وتتسلل داخل البيوت تعانق الشيوخ والاطفال .. وكل الكائنات ..

أية شفافية غريبة أهيم فى رحابها برغم العنف الذى يمارس شريعة القصاص ..

وقال عبد الرحيم :

ـ « ألا تعلم أنه فى المستشفى ؟؟ لقد كادوا يقتلونه .. »

ـ « من ؟؟ »

ـ « نور .. »

ـ « لا تذكر اسمه أمامى .. »

ـ « لقد اصطاده العامة فى الشارع .. كان يجرى هنا وهناك وهم يطاردونه .. اننى اتصوره بعوده الفارع ونظراته الزائفة .. والرعب يسيطر عليه .. مأساة مجسمة للانسان الضائع .. ثم سقط اعياء بعد ان جرى طويلا .. داسته الاقدام .. انهالت عليه الاحجار .. التقطته سيارة الشرطة وانتزعته من بين ايدى الناس..

وذهب .. الى المستشفى وهو يلتقط انفاسه بصعوبة بالغة.. ولا اعلم مصيره حتى الآن »

فى ماضى الايام احببت نور ، كنت أعرف بعض نقائصه ، وأدرك استهتاره ، وكنت آمل ان تنصلح أحواله ، وخاصة اذا ما وجد العمل الذى يسد حاجته ، ظننت انه باللين والعطف والمناقشة الهادئة استطيع ان اسكب فى قلبه قطرات من الايمان ، فالمؤمن يجابه الحياة بصبر وارادة وتوكل على الله .. لكنه استعصى على، من يصدق ان قبيلة من الايبو تؤثر فيها كلماتى ، وتتحول الى دين الله ، فى الوقت الذى استعصى علي فيه ان ارد اليقين الى قلب

صديق مسلـــم ؟؟

وقال عبد الرحيم :

ــ « انه مسكين ، لن يواسيه أحد »

ــ « هو الذى قطع كل رابطة له بالناس الشرفاء »

ــ « انها سقطة ·· »

ــ « فليدفع ثمنها ··· »

ــ « أرى ان نعوده فى المستشفى يا عثمان ·· »

ــ « أجد صعوبة فى ذلك ··»

ــ « لكنك رجل مؤمن ، وتعرف ثواب الصفح عن الخاطئين ··»

ووجدتنى أتذكر أيامى الماضية معــه ، والعنت الــذى لقيته سعيدة منه ، وسقوطه فى شرك الاعــداء ، واحتشــدت كــل هذه الذكريات فى رأسى فهتفت :

ــ « مستحيل ·· »

امسك عبد الرحيم بيدى وقال :

ــ « انا اعرفك ·· ان قلبك طيب ·· هيا بنا ·· »

وسرت معه الى احدى المستشفيات التبشيرية ، لشد ما اكره الذهاب الى مثل هذه المستشفيات لما فيها من تعصب مقيت ، واهمال للمسلمين ، واستغلال بشع لحاجات المرضى ، والمتألمين ، وبلغنــا المستشفى فأخبرنا الكاتب المختص بتسجيل المرضى ان حالة نـــور قد تحسنت ، وانه أخذ الى مستشفى السجن ليكمل علاجه هناك ، وقد سمع انهم سوف يقدمونه للمحاكمة بعد شفائه ·

قلت وأنا أعود الى الشارع : ــ

ــ « ترى هل سيجد من يدافع عنه ؟؟ »

١٨

وذهبت الى « زاريا » بحثا عن « سعيدة » ، كنت وحدى فى الطريق اليها ، قلبى يشدنى الى الارض الطيبة التى تدب عليها ، كلما مرت الايام ، بل الساعات ، أحسست اننى احبها أكثر فأكثر ، واخذ قلبى يرسم لها صورة بديعة مشرقة ، ان ضغوط الآلام التى تعرضت لها ، والعناء الذى قاست منه لا شك وشح جمالها الفطرى ، ووجها الاسمر بمسحة خفيفة من الحزن المقدس،وعندما يضمنا اللقاء فى اللحظات الهانئة ، فلسوف تمحى الآلام والاشجان ، وعندئذ نستشعر مذاق السعادة مضاعفا ، اترى يستطيع قلبى ان يحتمل هذه السعادة كلها ؟؟

وانا مسافر جوال ، أعرف البلاد ، وكثيرا من السكان ، وانا ادرى بمكامن الثروة ، وأسواق التجارة ، وأماكن اللهو ، ودور العبادة ، وطبائع القبائل ، وضجيج السياسة ، قلما أضل الطريق ، او اسقط بين براثن الحيرة ، اشعر ان كل بقعة فى نيجيريا هـى مسقط رأسى ، لا فرق عندى بين « زاريا » و « كانو » و « لاجوس » و « اينوغو » .. وقصدت لتوى مركز « الشرطة » ، كنت ابحث عن « سعيدة » أعنى « جاماكا » .. عملاق من الشمال يبحث عن فتاة من الايبو ، لا شك ان الضابط قد ظن اننى سوف اشرب من دمها ، لذا همس فى شك :

ــ « لماذا تريدهـــا ؟؟ »

ـ « هى خطيبتى •• »

ابتسم فى دهشة وقال :

ـ « صدقنى •• أصبحت أشك فى كلام الناس ، والدنيا لا تثبت على حال ، ان العالم من حولك يموج بالاحداث •• »

كنت قد شرحت له باختصار كل ما يتعلق بها ، وانها كانت متهمة فى قضية سرقة مزيفة ، وانها •• وانها ••• وهز الضابط رأسه وقـــال :

ـ « لقد سلمناها للاسرة التى كانت تقيم فى كنفها »

وأعطانى اسم الشارع ورقم البيت ، وسرت فى الطريق فى انتظار اللحظات الحلوة ، وكلما اقتربت من البيت شعرت بما يشبه الدوار ، تضاءلت شجاعتى ، وتداخلت الصور القديمة والحديثة ، واصبحت لا أجد كلمة محددة مناسبة أستطيع أن أقولها لها ••

قال لي حارس القصر :

ـ « كانت فتاة طيبة ، على الرغم مما سببت لنا من مشاكل »

ـ « ماذا تعنى ؟؟ »

دق قلبى من الخوف ، لكننى سمعته يقول :

ـ « لقد رحلت ! »

ـ « متـــــى ؟؟ »

ـ « الامس »

ـ « الا تدري الى اين ؟؟ »

ـ « يبدو انها اتجهت الى سوكوتا •• ومع ذلك فلسوف أتأكد من ذلك بنفسي •• ان سيدة القصر تعرف عنها كـــل شـــىء ••• والحقيقة انها بكت كثيرا عندما قررت « سعيدة » الرحيل •• »

ـ « ارجوك ٠٠ بسرعة ٠٠ »

قال الحارس وهو يتجه صوب الداخل :

ـ « يجب ان تقلق عليها ٠٠ فالبلاد هائجة مائجة ، وسعيدة مسكينة تعرضت لآلام ومضايقات شتى » ٠

وجلست انتظر امام القصر ، تحت الاشجار الخضراء ، والطيور تبعث بأصوات متقطعة يائسة ، ورائحة الزهور ذات الاريج الحلو تلامس انفي بأنامل سحرية حلوة ، وحان العصر ، والسماء رائقة زرقاء تبعث على الامل والصفاء ٠٠ والمواطنون من ابناء امتي يمضون في الطريق الواسع باسمين ، والاطفال يجرون ويمرحون ، سيل الحياة يتدفق دائما دونما انقطاع ، وشعرت بعاطفة قوية نحو الاطفال الذين يمرحون ، لكم احبهم ٠٠

ـ « نعم ٠٠ ذهبت الى سوكوتا ٠٠ هذا ما أكدته سيدة القصر ٠٠ وهي ترحب بك لكى تستريح ، وتتناول الطعام ٠٠ »

هذا ما قاله الحارس ، فصافحته شاكرا ، وانطلقت عائدا من حيث أتيت ، ترى اين ذهبت ؟؟ بالطبع لن تعود الى المستشفى التبشيري الذى ظلمها وأساء اليها ، الاحتمال الاكبر ان تكون قد قصدت بيت شيخى « عبد الله » ، أم تراها ذهبت الى بيتى ؟؟

ولم اصل الى « سوكوتا » إلافي وقت متأخر ، عانيت الكثير من الارهاق ، ومع ذلك فقد كنت أصدق هواجسي فى احتمال لقائها بمنزلى ، واشعر بجسدي تنتابه قشعريرة غريبة ٠٠ لكن ليس لديها مفتاح ٠٠ أجل ٠٠ ومع ذلك ففى امكانها ان تتسلق السور ، تماما كما كانت تتسلق الاشجار فى أحضان الغابات الكثيفة ، وفتحت الباب وانا اتصنع السعال ، سوف تشرق بوجهها الجميل فى ساحة البيت٠ ، لكنى انظر فى كل اتجاه فلا أجد لها ريحا ، ضاع الحلم الجميل الذى ظل يداعب خيالي طوال الطريق ، ومع ذلك فقد كنت ـ

حتى آخر لحظة ـ اتوقع ان تثب امامى من مخبأ ما ، وتفاجئني ،
آه ‥ البيت خاو لا حس فيه ولا نفس ‥ لشد ما اصبحت اشعر
بملل قاتل فى هذا البيت الرحب الذى لا يسكنه انسان غيري !!
كيف تحملت الحياة وحدى طوال هذه السنوات ؟؟
ولم استطع ان اقاوم النوم ‥
وتوجهت فى الصباح الى بيت شيخي الذى كان يعج بالاتباع
والاشياع ، والاحاديث الجذابة حول شئون الدنيا والدين تسيطر
على المجلس ، واقتربت من شيخى هامسا :
ـ « ألم تأت اليكم سعيدة ؟؟ »
ابتسم شيخى فى رضى وقال :
ـ « الافراح الحقة تعمر قلوب الاتقياء ‥ »
ـ « أجل ‥ »
ـ « وسعيدة لم تأت الينا ‥ »
دارت بى الارض ، هذا آخر ما كنت اتوقعه ، اين ذهبت اذن ؟
لا شك انها تعرف ما يجرى فى البلاد من أحداث ، وتستطيع ان تخمن
اننى قد خرجت من السجن ، واننا قاب قوسين او ادنى من السعادة
التى نحلم بها ‥‥ يا الهى !! اين اتجه ‥
ـ « شيخى ‥ اننى اشعر بقلق بالغ ، فقد بحثت عنها فى
زاريا ‥ وفى مقر الشرطة ‥ وفى البيت الذى كانت تخدم فيه ‥»
أغمض شيخى عينيه مفكرا وقال :
ـ « عجيب هذا الامر ‥ »
ـ « أخاف ان تكون يد قد امتدت اليها بالانتقام فى هذه الايام
الرهيبة ‥ »
ـ « أشك فى ذلك يا عثمان ‥‥ فالناس هنا يعرّفون
قصتها ‥ »

ـ « ما الحـــل ؟؟؟ »
قال شيخي وهو يشير بأصبع الابهام :
ـ « السر هناك ·· »
ـ « أين ؟؟ »
ـ « في المستشفى الذى كانت تعمل فيه ·· »
في طريقي الى المستشفى كنت أسأل من أعرف ، سواء في القسم القديم من المدينة او القسم الجديد، وسألت الكثيرين من أصدقائي المنتمين للايبو والذين يشغلـون مناصب عـدة ، لكن لا أثـر ولا خبر ····
وأخيرا بلغت المستشفى ·· الجميع يغلقون افواههم عند سؤالي، لا شك انهم يعرفون ولا يريدون ان يخبروني عن شيء ، ودخلت ثائرا غرفة الطبيب « هانيمان »
ـ « أين جاماكا ؟؟ »
ابتسم في برود وقال :
ـ « لقد رحلت منذ فترة طويلة »
قلت وانا اسدد اليه نظرات غاضبة لا ترحم :
ـ « انت تعرف ·· »
أشعل سيجارة وقال :
ـ « حسنا لقد عاد الطائر الى عشه ·· »
وتبادر الى ذهني على الفور انها ربما تكون قد عادت الى دينها ومقر عملها ، ولعلهم أخذوها الى مستشفى آخـر ، ولـم أكـن أجد تفسيرا لهذا ان صح انه صحيح ، واقتربت من الطبيب قائلا فـي لهجة حاسمة :
ـ « اين هي ؟؟ »
تنهد في راحة ،ونفث دخان سيجارته وقال :

ـ « جاء أهلها واصطحبوها الى الشرق ٠٠ »
صرخت في جنون وانا امسك بيده في جفوة :
ـ « انت تعرف انهم من المتنصرين ٠٠ وقد ساءهم ما حدث منها ، وهذا شيء لا دخل لنا فيه »
ـ « لا بد انهم اختطفوها ٠٠ »
ـ « هذا شيء لا يخصني ٠٠ »
قلت والدموع تكاد تطفر من عيني :
ـ « لو كانت وراء السحب لطرت اليها ٠٠ »
ـ « هذا شأنك يا عزيزي ٠٠ غير اني أؤكد لك ـ كصديق ـ ان الطريق محفوف بالاهوال ٠٠ »

* *

وعدت وحدي الى الطريق ، كل شيء ينبض بالحزن والاسى ، القلق الحارق يعبث بروحي ، ويفقدني الرغبة في ان انام او آكل او استقر في مكان ، أكاد اختنق من شدة الضيـق ، لا استطيع ان اصعد انفاسي الا بصعوبة بالغة ، يا الهي ماذا افعل ؟؟

قال شيخي وقد اخبرته بكل شيء :

ـ « لقد أراد الله يا عثمان ان تشد رحالك الى اقاليم الايبو مرة ثانية ٠٠ خذ اغنامك ٠٠ واتجه صوب « لا جوس » ٠٠٠ ومنها اخترق الغابات صوب الشرق ٠٠ وهناك ستلتقي باخوة احباء ٠٠ وسوف يهتدي على يديك خلق كثير ٠٠٠ وستجدها هناك ٠٠ »

قلت وانا ارتجف :

ـ « كنت سأذهب ، لكن ألا تعتقد ا ناهلها قد يفكرون في قتلي ؟؟ »
ـ « وقد تنجاب عن اعينهم غشاوة الجهل والكفر ٠٠ »
ـ « أأذهب ؟؟ »

ـ « هذا نداء الله يا عثمان ·· سوف يصحبك الله فى الحل والترحال ·· وخذ معك عبد الرحيم ··· واعلم ان اخوة لك قـــد سبقوك الى هناك منذ قلم الله أظافر ايرونسى والمتمرديـــن ·· اخوتك يا عثمان الآن منتشرون فى الغابات ··· وفى القرى وحقول النخيل ··· وعلى مشارف المناجم ··· حيث يسكن الايبو فـــى الشرق ، واليوروبا فى الغرب ···

ان ايدى المؤمنين تدق أبواب البشر صباح مساء ···· اذهب ··· وتوكل على الله ····· لعـــل فيما حدث خيـــر كثير ·· »

ان هي الا ايام قلائل وأشد الرحال ، انا اعرف الطريق جيدا، لم أعد أحتمل البقاء فى سوكوتا ، انتقل فيها بين الاضرحة والمساجد ومجالس العلم والعبادة ، اشعر دائما ان عبادتي لا تكمل الا بالسير والحركة ودعوة الشاردين الى الطريق الخالد ··· وسأظل طوال الطريق انتظر لقاءها ··· فلقد احببتها من كل قلبى ···

١٩

الارض كلها مزروعة بالفتن ، ملغمة بالمؤامرات ، اشعر بذلك وانا امضى فى رحلتى الطويلة من الشمال قاصدا لاجوس ،ومخترقا الغابات فى الوسط والشرق ، كنت صادقا مع نفسى ومع رفيق السفر عبد الرحيم، أبديت له مخاوفي، ان سقوط ايرونسي والانتقام من بطانته ، وأخذ الخائنين من الايبو بالعقاب ، كان مجالا رحبا للكنائس الاستعمارية والصهيونية ، الذيـــن كـــانـــوا يـــرقصون بالامس فى شوارع لاجوس فرحا باستشهاد أحمدو بيللو ، وابتهاجا بمصرع وكيله فى الحزب « أبو بكر تفاوة » ـ وقد كان رئيسا لوزراء حكومة نيجيريا الاتحادية ، هؤلاء الذين رقصوا بالامس أراهم اليوم يكظمون غيظهم ، ويجيلون نظراتهم الحاقدة فى كل اتجاه ، وكأنهم ينتظرون ساعة معينة لينفثوا عن غيظهم وحقدهم ، وعلمنا ان كثيرين من المسيحيين انفسهم قد قضي عليهم ، انتقاما منهم بسبب تأييدهم القديم لاحمدو بيللو ، لم يترك ايرونسي وعصابته أحداًدون عقاب ، سواء أكان مسلما أو مسيحيا ، ومن الهوسا او الايبو او اليوروبا ، كانوا ـ قبل ان ينقض عليهم يعقوب جوون ـ يخططون لفلسفة متعصبة عميلة ، تحركها أيد خفية ، لكن ذلك كله قد سقط بانتصار الثورة فى الشمال ، وبروز الهوسا ، وهم الاغلبية المسلمة الساحقة فى كل نيجيريا الى حيز السلطة والتنفيذ ... وكان أمل الاعداء مركزا على الحاكم العسكرى للاقليم الشرقى وهو الضابط «أوجوكو»

الذى دأب فى الفترة الاخيرة على مهاجمة الشمال ويعقوب جوون فى خطبه،
وكان يعقوب يحاول جاهدا ان يوضح له الامر ، ويدعوه الى الكف
عن اثارة الحزازات والفتن ، حفاظا على وحدة كيان الدولة ، واعطاء
الحكومة الجديدة فرصة التنمية ، والنهوض بالشعب اقتصاديا
وسياسيا واجتماعيا .. وأخذنا ـ انا وعبد الرحيم ومعنا خادم
عجوز ـ ننتقل من مكان الى مكان ندعو الى الله ، لم تكن المهمة فى
هذه المرة سهلة ، فقد كنا احيانا نقيم شهرا بين قبيلة من القبائل
دون ان يهدى الله على أيدينا أحدا ، واحيانا أخرى كنا نلتقى ببضعة
رجال فى الطريق ، سرعان ما يعتنقون الاسلام ، ويتركون وثنيتهم
فى فرح واقتناع ، وبعض رؤساء القرى كانوا يرفضون استقبالنا
ويطلبون منا الرحيل فورا ، وفى كل مرة ـ سواء فى حالة النجاح
او الفشل ـ حرصنا ان تتسم تصرفاتنا بالنبل والصبر واللياقة ،
شأن الدعاة الواعين الفاهمين لكل ما يعترض الطريق من عقبات...

وبعد شهرين ونصف على وجه التقريب استطعنا ان نبلغ
المكان الذى تعيش فيه قبيلة « جاماكا » ، وكنت مدركا تماما لدقة
الموقف وحرجه ، قال عبد الرحيم وهو يمسح المكان بنظراته الحادة :

ـ « هذه بقعة جميلة لا يأسف المرء أن يدفن فيها .. »

وضحكنا ، كان عبد الرحيم مقتنعا ان مجيئنا هنا مغامرة
غير مأمونة العواقب ، وخاصة ان أهل « جاماكا » قد تنصروا منذ
عدة اعوام ، وهو يعتقد ان الذين تركوا الوثنية واعتنقوا دينا جديدا
قد يكونون أشد عنفا واستمساكا بعقيدتهم الحديثة من الوثنيين
أنفسهم ، وقلت لعبد الرحيم :

ـ « أتخاف الموت ؟؟ »

ـ « على الاقل يجب ألا أسعى اليه »

ـ « رسالتنا هى الحياة •• جئنا لنرسم صورة جديدة للحياة تليق بالانسان •• »

ضحك عبد الرحيم وقال :

ـ « لو يعلم الناس ذلك منذ البداية لما تكبدنا المشاق •• »

ـ « لا تخف •• »

ـ « وكيف لا أخاف ؟؟؟ ان يقتلونا هنا بطريقة مزعجة •• وقد يختطف الوثنيين لحومنا •• لا شك ان طعمك لذيـذ •• »

اقشعر بدني ، وتصورت الوليمة الوثنية الصاخبة والنار والدماء ، والافواه الجائعة ، والتراتيل الوحشية ، والطبول المجنونة، فاستبد بى ألم فظيع :

ـ « عبد الرحيم •• أرجوك •• لا تعد هذا على مسمعى مرة ثانية ، انني أشعر باشمئزاز بالغ » وسمعت خادمنا العجوز الذى وقف مشدوها مرتعدا يقول :

ـ « ما كان يجب أن آتى معكم •• »

قال عبد الرحيم له بطريقته المرحة وهو يربت على كتفه :

ـ « اطمئن •• فلن يكون لحمك طيب المذاق •• ولم يبق لك من العمر الا أقله حسبما أعتقد ، فلن تخسر كثيرا ••»

ومضى الليل الا أقله ونحن نتدارس الامر ، ونعد العدة للغد ، كان رأى عبد الرحيم الا ندخل البلدة فى الغد ، ففى التريث بركة ، وكان من رأيه أيضا ألا تظهر هويتنا الحقيقية فى البداية ، حتى ينجلى الموقف ، وتتضح الحقائق كاملة ، واقترح عبد الرحيم ان نرسل الخادم كى يتقصى لنا الامور ، ويحاول جاهدا الاتصال بجاماكا ، لانها لو علمت بوجودنا ، فقد تقدم لنا بعض التوجيهات الضرورية ، واقتنعت علـى الفور بهذه الافكـار الواعية الحذرة ، وتحدثت مع الخادم العجوز ، الذى أبدى خوفا شديدا وقال :

ـ « تريدون ان تجعلوا منى كبش الفداء ؟؟ »
ـ « كلا ‥ لكنك ستدخل البلدة فى زى متسول مريض ‥ »
ـ « لن افعل ‥ لقد جئت لخدمتكم بأجر محدد ، وعملي هو الآخر محدد ‥ ولن أشارك فى العمل الآخر الذى جئتم من أجله ‥»
وبكى العجوز ، وأخذ يقول بصوت متحشرج :
ـ « الا ترحمون شيخوختى ‥ انا انسان ضعيف مسكين ‥»
ـ « ولهذا اخترناك ‥ شيخوختك وضعفك سيحميانك‥ »
قال وهو يلوح بيده :
ـ « مستحيل ‥ مستحيل ‥ وسوف أرجع من حيث أتيت، ولست بحاجة الى بقية أجرى ، إننى أفضل الموت جوعا ، او تنهشني الضباع من ان يلتهم لحمي هؤلاء الوثنيون ‥ »
وجلسنا حائرين يلفنا الصمت العميق المحير ، جاماكا على بعد خطوات ، وانا أتلهف شوقا لرؤياها ، والتمتع بحديثها ، اريد ان أعرف ماذا جرى لها، واريد ان نبدأ حياتنا معا كزوجين سعيدين، ونعلن على الملأ قصة الايمان العظيم الذى انبثق من الجزيرة العربية وانطلق نوره الفياض فى كل أنحاء الدنيا ، ورسم ابهج صورة للدنيا والأخرة ، وعلاقات البشر قاطبة ‥ كان غارقا فى عديد من الافكار ، واذ بى ارى عبد الرحيم يغيب لبضع دقائق ثم يعود بعد ذلك مرتديا زيا غريبا بعض الشيء .
ـ « ما هذا ؟؟ انك تبدو كمواطن تشاد »
ـ « بالضبط ‥ هذا ما قصدته ‥ ثم انتظر ‥ »
ورأيته قد علق ساعده الايسر فى رقبته ، وأحكم رباطه بلفافات عديدة من الشاش ، كان منظره يدعو الى العجب ‥ وقال عبد الرحيم باسما :
ـ « أنا أكره الخداع ‥ لكنى أعشق التمثيل ‥‥ وأظنه

ليس حراما •• على أية حال فالحرب خدعة •• سأذهب الى قبيلة جاماكا بنفسى •• سأقول لهم انى متسول غريب قادم من تشاد•• واننى على دراية كبيرة بالسحر •• وقراءة الغيب • »

ضربت بكفى قائلا :

ـ « من اتى عرافا فقد كفر •• »

ـ « هم كفرة بطبيعة الحال •• ومع ذلك فأنا لا أجد وسيلة أخرى ، اخترق بها سياج العزلة هنا ، واتعرف على البيئة التى نتحرك فيها •• هيه •• ماذا قلت ؟؟ »

طأطأت رأسى وهمست :

ـ « على بركة الله •• انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى » •

❋ ❋

لم يعد الينا عبد الرحيم بعد ان رحل فى الفجر الا بعد يومين، تناوبتنى خلالهما الشكوك والهواجس ، وعرفت منه فيما بعد انه دخل القرية بطريقة هادئة لا تلفت النظر ، ومضى فى طرقاتها ينادى بصوته الجهورى

ـ « عابر سبيل •• يطلب الاحسان ••

تاجر صغير •• دهمنى اللصوص وأخذوا مالى وكسروا زراعى الرحمة يا أهل الرحمة •• »

واستطاع خلال نصف النهار الاول ان يتجول فى انحاء البلدة ويعرف الكثير عنها ، وكم كانت دهشته عندما علم أن أهلها وأميرها ما زالوا على ديانتهم الوثنية ، وان فئة قليلة جدا قد اعتنقت النصرانية ، ولهم معبد صغير ، يقع بجوار المستوصف المتواضع ، والغريب أنه وجد بضعة نفر مسلمين ويؤدون الصلاة فى مصلى جانبى مهمل فى الجانب الآخر من القرية ••

وبعد الظهر توجه « عبد الرحيم » صوب المستوصف الصغير ، كان يبدو هادئا لا أحد من المرضى أمامه ، وهو مكون من غرفتين صغيرتين ، وجدرانه مصبوغة بالجص الابيض ، يرفرف من فوقه علم نيجيريا وراية عليها صليب ، وتمثال للعذراء مقام فى الساحة الامامية ، واقترب عبد الرحيم من باب المستوصف ، فاستقبلته فتاة صغيرة ترتدى زى الممرضات المميز ، وعلى صدرها تطريز لصليب واضح كبير ..

ـ « ما الذي اتي بك من تشاد ؟؟ »

ـ « قدري .. »

واقتربت منه وأمسكت بذراعه قائلة :

ـ « هل كسرت عظامك ؟؟ »

صاح عبد الرحيم فى رعب :

ـ « بالله لا تلمسين .. الالم يكاد يقتلنى .. »

ـ « لا تخف سأعطيك دواء مخدرا .. »

ـ « لا أريد .. »

ـ « لماذا أتيت اذا .. »

ـ « لاستريح بعض الوقت .. »

وصاحت فتاة فى الداخل :

ـ « ماذا هناك ؟؟ ما هذه الضجة .. »

وسمع عبد الرحيم الممرضة تردد قائلة :

ـ « مريض يرفض العلاج أيتها الاخت جاماكا .. .. »

وذهل عبد الرحيم عند سماعه اسمها ، وقف مسمرا فى مكانه ، فكر بسرعة ماذا يفعل ؟؟

ورآها قادمة .. كانت تتفحصه بامعان وابتسم عبد الرحيم لرؤياها ...

ـ « من انت ؟؟ »
ـ « جائع ظامیء •• »
والتفتت « جاماكا » الى زميلتها قائلة :
ـ « اذهبى واحضرى له شطيرة وكوبا من عصير الفواكه ، يبدو ان الجرح قد سبب له صدمة •• »
وحينما انصرفت الممرضة ، أمسك عبد الرحيم بيدها وهو يتلفت يمنة ويسرة ، ويقول بصوت هامس :
ـ « سعيدة ••• انه هنا •• »
قالت وقد بدت الدهشة على وجهها :
ـ « سعيدة ؟؟ من أنت ؟؟ »
ـ « عثمان أمينة •• هناك •• على حافة الغابة •• عند المنحدر الشمالى •• ينتظر على احر من الجمر ••• »
قالت وقد أغرورقت عيناها بالدموع ••
ـ « هل جاء ؟؟ »
ـ « نعم •• حفيت أقدامنا بحثا عنك •• »
كادت تسقط اعياء ، لكن عبد الرحيم عاجلها قائلا :
ـ « يجب ألا يعلم أحد شيئا •• تصرفى بطريقة عادية •• »
سرعان ما تماسكت ، ثم قالت :
ـ « ستبقى هنا الليلة •• مفهوم •• سترحل زميلتى الى بيتها ••• ولن يكون معى سوى الحارس الذى يقف خارج المبنى •• سأدخلك كى تستريح وتضمد الجراح •• »
وقال لى عبد الرحيم بعد ذلك : ـ
ـ « وعلمت من « جاماكا » كل شیء بتفاصيله ، شرحت لى كيف ان الذين اختطفوها ليسوا أهلها ، وانما عصابة كان يوجهها « هانيمان » لقد التقطوها من « زاريا » ، ثم حقنوها بعقار مخدر

ووضعوها في غرفة لاسعاف الجرحى ، ثم أتوا بها الى هنا ، وسلموها الى أهلها الذين كانوا فى غاية الغضب بسبب اعتناقها الاسلام ، وكم كانت دهشتي عندما علمت انها ما زالت على اسلامها ، وانها تدعو اليه خفية بين بنات جنسها حتى ان فتيات كثيرات قد تبعتها سرا وهى ترفض الذهاب الى الكنيسة برغم تهديد اهلها وعنفهم معها، واتفقت معي على انها سوف تأتى بنفسها لتوضيح كل شيء أمام عثمان ·· أمامك أنت ·· »

* *

وقفت أنتظر اللحظات الموعودة التى طال ترقبى لها ، انها لحظات قصيرة ، لكنها ضخمة ضخامة العمر بما يهدر فيه من انفعالات وأشواق عارمة ·· الحب الحقيقى يهب الانسان طاقة هائلة تسخر من الخوف ، ولا تكترث للمخاطر ·· وحينما رأيتها تقدم تحت ستار الليل ، والقمر يسطع فى الأفق الصافى امتلىء بفيض من الأفراح لا يمكننى وصفها أو التعبير عنها ·· تراءت النجوم ·· وأشباح الأشجار ·· والتلال ·· وفروع الأنهار الصغيرة ·· كأنها تغنى وسط سيمفونية ·· لا مثيل لها ، وخيل الى أني أسمع عبد الرحيم يترنم بأغنية الايبو البارعة الفاتنة ·· وكان الصمت أبلغ من كل كلام ·····

ولم ندر أطال الوقت أم قصر ، لكن « جاماكا » أعني سعيدة انتفضت واقفة فجأة ، فقلت :

ـ « ماذا جرى ؟؟ »

قالت : ـ « ألا تسمع دقات الطبل ؟؟ »

ـ « لا أفهم ·· »

ـ « هذه الدقات معناها الاستغاثة أو النجدة ·· »

ـ « لماذا ؟؟ »

وبقيت جاماكا صامتة ترتعد ··

ـ « بدا لى أننى رأيت أحدا يتتبعنى »

ـ « لعله الوهم والخوف ·· »

ولم تكن تعلم أن الحارس قد تتبعها فعلا ، ثم عاد الى القرية يصيح ويقول :

ـ « جاماكا سرقها الغرباء ·· »

لم تعرف ذلك على التو ، وقد اتضح كل شىء عندما رأينا عددا كبيرا من حملة الرماح يدهمون المكان ، ويحيطون بنا من كل جانب ، ووجدت « جاماكا » تخرج اليهم فى شجاعة لا نظير لها ، وتصيح بأعلى صوتها :

ـ « ما هذا الذى تفعلون ؟؟ لقد أتيت لمعالجة مريض لم يستطع الوصول الى المستوصف ··· انزلوا رماحكم وعودوا من حيث اتيتم ·· »

كان الخادم العجوز يرتجف من الانفعال ،وجسده كله ينتفض ، وقدم بعض رجال الايبو ، ومعهم مصباح صغير ، واقتربوا منا ، واتجهت أبصارهم صوب العجوز الملقى على الأرض ينتحب ويبكى ويرتجف ، وما ان رأوه على هذه الحال حتى انصرفوا فى هدوء ، وقال أحدهم وهو يهبط المنحدر :

ـ « جاماكا ·· نحن فى انتظارك حتى تنتهى من مداواته··· »

وحذرتنى « جاماكا » وهى تزمع العودة قائلة :

ـ « أدخلوا البلدة ولا تخافوا ··· ادخلوها كتجار ·· وحذار

أن يعلم أحد هويتكم فى البداية ··· وسيبقى العجوز فى المستوصف للعلاج ···· وبهذا ألتقى بكم دائما كلما أتيتم لزيارته ··· •

وانصرفت ·· وكان قلبى يدق مع كل خطوة من خطواتها··

وحمل اثنان من رجال الايبو الرجل العجوز ، ووضعوه على محفة من أفرع الأشجار ، وكان المسكين يصيح ويتململ ويرفض الذهاب ، لكننى زجرته وطمأنته ···

فاستسلم لمصيره ····

٢٠

لم تكن رحلتنا تلك خالية من المنغصات ، وهكذا الدنيا فى يوم تبتسم لك وفى يوم آخر تكشر لك عن أنيابها ، والمؤمن مطالب ألا يفرح بما أتاه ، ولا ييأس على ما فاته ، وأن يهىء نفسه للنجاح والفشل ، والرضا والسخط ، والشقاء والنعيم ، ولم

تفلح رقصات « عبد الرحيم » ولا أغنياته عن الايبو أن تزيل جو الشكوك المحيط بنا تماما ، وأخذنا نجتهد فى التجارة اخفاء لنوايانا الطيبة ، فكنا نخرج فى رحلات قصيرة الى القرية القريبة ، ونعود ببعض الأغراض الى قرية « جاماكا » التى اتخذنا منها مقرا لنا ، وكان يشرف على المستوصف قسيس غير متفرغ ، بمعنى انه يبقى فى القرية يومين من كل أسبوع أحدهما يوم الأحد كى يؤدى المواعظ ، ويقوم بالصلاة للفئة القليلة المتنصرة من أسرة « جاماكا » ويبدو ان « ماري » زميلة « جاماكا » فى العمل لم تكن ترتاح لوجودنا ، اذ كنت ألحظ الامتعاض على وجهها كلما رأتنا ، وكان خادمنا العجوز تزداد حالته الصحية سوءا ، أليس هذا عجيبا ، لقد كان يمثل المرض ، واذ به يتحول الى مريض فعلا ، لعل القدر أراد أن يمد فى بقائنا أطول فترة ممكنة لشيء يعلمه الله ، ومع ذلك فقد استطعنا أن ننجز بعض النجاح فى القرى ، اذ أسلم على

أيدينا أكثر من ثلاثين رجلا وامرأة ، وكنت أتسلل الى قراهم من وقت لاخر وأشرح لهم قواعد الدين الاسلامى ، وتأدية الشعائر بالطريقة السليمة ، كما طلبت منهم أن يتكتموا أمرنا حتى نرحل، اذ أن العداء بين « أوجوكو » حاكم الاقليم الشرقى ، ويعقوب جوون قد استحكم فى الأيام الأخيرة ، وكرر « أوجوكو » نداءاته للايبو كى يعودوا من الاقليم الشرقى ، وحدد موعدا نهائيا لعودتهم ، وأشيع أنه يفكر فى الاستقلال بالاقليم الشرقى ويجعل منه جمهورية مستقلة ، والتقينا سرا أنا وعبد الرحيم ، وجاماكا لنتدارس الوضع الذى نعانى منه ، وقلت :

ــ « ها نحن نعيش كالسجناء •• »

قال عبد الرحيم :

ــ « ولن نستطيع أن نبقى هكذا »

وقالت « جاماكا » وعيناها تبرقان فى ثقة :

ــ « لا بد من الحركة •• »

قلت : « ماذا تعنين ؟؟ »

ــ « قولوا للناس كلمتكم علانية »

ــ « والنتيجة يا سعيدة ؟؟ »

ــ « من شاء امن ومن شاء كفر •• »

ــ « وانت ؟؟ »

ــ « ساتدبر الأمر وارحل معكم خفية •• ما عدت اطيق البقاء هنا اكثر من ذلك •• »

وبرغم الشكوك التى كانت تحوم حولنا ، فقد انس الكثيرون من اهل القرية الى سلوكنا الطيب ، وتعاملنا النظيف ، واخذت عبد الرحيم ومضيت الى امير البلدة ، لقد سبق والتقينا به تحت

اسم التجار ، واستقبلنا الرجل استقبالا طيبا كعادته ، لم يكن معه سوى رجلين من عيون القرية ، وكـان الجو اذن ينبى عـن الهـــدوء

قلت له بعد ان جلسنا بضع دقائق :

ـ « يا أمير ··· الصدق أمانة ، والكذب خيانة ·· »

ـ « هــو ذاك ·· »

ـ « وقد جئنا نحمل اليك أعظم هدية فى الوجود ·· »

ابتسم الامير ، واضاءت الابتسامة وجهه الاسود وقـــال :

ـ « هذا شىء عظيم ·· »

ـ « كل شىء فناء أيها الأمير ·· »

ـ « أعلـــم ·· »

ـ « الا ما يطهر الروح ، ويقربها من الله ·· »

ـ « نحن نعبد الله من قديم ·· »

ـ « هديتنا اليك ·· كتاب الله ·· هدية السماء للارض·· »

وأخرجت مصحفا جميلا ، مكتوبا بالعربية ، ومع علمى بانه لا يستطيع قراءته ، ، الا انى قدمته اليه ···

ـ « ماذا فيه ؟؟ »

ـ « سعادة الدنيا والآخرة »

ـ « ثم ماذا ؟؟ »

ـ « وفيه ·· الله واحد للبيض والسود ، والفقراء والأغنياء، وفيه أن الايمان واجب بجميع الرسالات الالهية والرسل والأنبياء لا نفرق بين أحد من رسله ·· »

هز رأسه ، ونظر الينا فى امعان وقال :

ـ « وما هو حقه علينا ؟؟ »

ـ « حقه أن تؤمنوا بـه ‥ وان تحاربوا الفســاد والظلم والخطيئة ‥ »

غمغم قائــلا :

ـ « وماذا تعنى الخطيئة ؟؟ »

ـ « لقد وضع الله نظاما للحياة ، ووضع علاقات البشر ، وحقوقهم وواجباتهم ‥ بأسلوب عادل لا مثيل له ، فمن خرج عليها فهو خاطىء ‥ ان حدود الخطأ والصواب قد وضعها الله ، ولـم تترك لأهواء بشر ‥ البشر قد يجانبهم الصواب ، لكن الله جل وعلا لا يخطىء ، ولا يحيد عن الحـق ‥ لأن اسمه الحـق ‥ »

ابتسم الأمير وعلق :

ـ « كلماتك جميلة‥ وما أكثر ما سمعت من كلمات جميلة‥ أيها أصدق ؟؟ »

وثبت وجلست أمامه بين يديه وقلت :

ـ « صدق عقلك وقلبك ‥ صــدق التجربة الحية ‥ »

ـ « يا الهى ‥ تعددت صور الحق كثيرا ‥ جاءنى أحـد القساوسة منذ سنوات وكلمنى كثيرا عن ذلك ‥ لكنى أعـرف هؤلاء الأجانب ‥ »

أسرعت قائــلا :

ـ « لم نأت مستعمرين ولا طامعين ، ولم نحمل اليك مالا ، وما وعدناك بتثبيت دعائم حكمك ‥ نحن لا نحمل الا دعوة الحق ‥ وهذا كل ما معنا ‥ »

ووضع يده على كتفي وقــال :

ـ « من أنتم ؟؟ »

ـ « مسلمون ‥ اخوة لكم قدمنا من الشمال ‥ »

وبدا شيء من الامتعاض على وجهه وقـــال :

ـ « لكنكم قتلتم الايبو في الشمال ٠٠ »

ـ « لقد سبقوا بارتكاب القتل ٠٠ فوقع عليهم القصاص ٠٠ ومع ذلك ، فان الأمر ليس قبليا ٠٠ دعوة الله للجميع ٠٠٠ قـد يكون الايبو المسلم أحب وأقرب الى الله من رجال الهوسا المسلمين ٠٠ والدين ينفر من العصبية ٠٠ الكل اخوة تحت لواء دعوة الله٠٠»

فكر الزعيم قليلا ثم قال :

ـ « كلامك جميل ٠٠ وحينما أنظر الى عينيك أقرأ فيهما الصدق والأمانة ٠٠ اتركـا هذا الأمر فسأفكر فيه بامعـان ٠ »

ثم قال بعده فترة صمت :

ـ « ان كانت لكما حاجة قضيتها ٠٠ »

وثب عبد الرحيم في خفة وقـــال :

ـ « الأمان ٠٠ »

ـ « هذا لكما ٠٠ »

ـ « وان تفتح أمامنا الطريق لنقول للناس كلمة الحق ، ولن نكره أحدا عليها ٠٠ »

ـ « قولا ما شئتما ٠٠ »

وخرجنا الى الأسواق وأماكـن التجمعات ندعو ونعلـن ، وفوجئت القرية بصورتنا الجديدة ، ولجأ الينا الاخوة المسلمون القدماء ، في فرح غامر ، وأخذوا ينقلون عنا كل شيء وخرجـت النسوة المسلمات اللاتي أسلمن على يد « سعيدة » يغنين ويظهرن ابتهاجهن ، ولم يمر الحدث بسهولة ، فقد هاجت القرية وماجت ، وعلا فيها الجدل والصياح ، وأمسك والد « جاماكا » بابنته وحبسها في مكان بعيد عن الأنظار حتى لا تتصل بنا أو بالناس ، وأوجسنا

خيفة من هذه التطورات الجديدة ، وبينما نحن نفكر فى الأمر اذ بزعيم القرية يدعونا بصفة عاجلة ، وعندما التقينا بالأمير استقبلنا واقفا ، والاهتمام باد على وجهه وقال :

ـ « يجب أن ترحلوا بسرعة •• »

قلت بنبرات متلعثمة :

ـ « لمــاذا ؟؟ »

تلفت حواليه ، ففهم من حوله انه يريد الانفراد بنا فانصرفوا، وما أن أصبحنا وحدنا حتى قــال :

ـ « لكى تنجو بحياتكم يجب أن ترحلـوا على الفـور •• »

ـ « لمــاذا ؟؟ »

ـ « الأمر لا يتعلق بكم خاصة •• »

ـ « ما معنى ذلك ؟؟ »

صرخ بأعلى صوته قائــلا :

ـ « أما سمعتم عن مذبحة « أونيتشا » •• ان شوارع البلدة منذ أمس قد امتلأت بجثث أبناء الهوسا المسلمين والقتل لا يكف ليل نهار •• لقد اشتعلت الفتنة •• وأوجوكو أعلن الأستقلال •• وغدا تقوم الحرب •• فرزا بجلودكم ••

انهم يبحثون عن الهوسا فى كل مكــان •• أتفهمـون ؟؟ المفروض أن أقتلكم الآن •• »

وآخذ يدق الحائط بيديه ويقول :

ـ « لا أستطيع •• لا أستطيع •• اننى لم أنس كلماتكـم الطيبة بعد •• مثلكم لا يصح ان يقتلوا •• »

وعندما هممنا بالانصراف أشار قائــلا :

ـ « لا ترحلوا الا فى الليل •• واذهبوا مباشرة الى قبائل

« الكالابار » فى الشرق ٠٠ الكالابار سوف يحمونكم ٠٠ لقد رفضوا المذابح ٠٠ الكالابار عندهم المكان الآمن لكم ٠٠ »

ثم أخذ يشرح لنا الطريق الآمن الى قبائل الكالابار ، وأخيرا همس :

ـ خدار أن يعلم أحد بما حدثتكم عنه »

وتوقفت لحظة ، ثم قلت :

ـ « أليس فى الامكان أن أصحب « جاماكا » معى ؟؟ لقد اتفقنا على الزواج ٠٠ »

ابتسم الزعيم فى مرارة وقال :

ـ « لا تفكر فى شىء آخر غير النجاة ٠٠ عندما تتوفر لك الحياة الآمنة ففى الامكان تصحيح كل خطأ ٠٠ الموت لا يعطى فرصة لأى لون من ألوان التصحيح ٠٠ انصرفوا بهدوء ٠٠ وقد ألتقى بكم فى يوم من الايام ٠٠ من يدرى ؟؟ ان صدى كلماتكم الحلوة لم يزل يرن فى قلبى ، ويخالط فكرى ٠٠ أنتم أناس طيبون ٠٠ »

* *

وبلغنا موطن « الكالابار » بعد جهاد مرير ، ومنح قاسية ، وتنفسنا الصعداء ونحن نلتقى باخواتنا اللاجئين من الهوسا الى حمى « الكالابار » كانت الحرب قد استعرت بين الشرق بزعامة أوجوكو والحكومة الاتحادية ويمثلها يعقوب جوون ، وسمعنا مئات القصص الرهيبة عن الذين ذبحوا غدرا فى مناطق الايبو بالشرق ، وكان واضحا ان اسرائيل والهيئات الاستعمارية والتبشيرية

تؤجج النار ، وتبعث بالأسلحة والمساعـدات لأجوكـو ، وتساعده اعلاميا فى الصحافة العالمية والاذعات الكبرى ، وتروج لجمهورية جديدة ·· جمهورية « بيافرا » وهكذا أغرقت بلادنا فـى الحرب الأهلية الدامية·· الحرب التى خطط لها الاستعماريون والاحتكاريون والحاقدون على الاسـلام والمسلمين ، وروج لها الذيـن رقصوا بالأمس لمصرع أحمدو بيللو ونائبه أبو بكر تفاوة ···

وتدفق عمالقة الشمال النيجيرى صوب غابات الايبو ، وأوكار العمالة والخيانة ، ليعيدوا للبلاد وحدتها وهدوءها ، وليحفظوا للامة خيراتها وحريتها ····

ورجعنا الى « سوكوتا » أنا وعبد الرحيم والخادم العجوز···

ولم يكن هناك مفر من أن ألتحق بالقوات المحاربة ايمانا بوحدة الأمة وحريتها وتخليصها من براثن المتآمرين والمتعصبين والاحتكاريين ···

وانضم أيضا عبد الرحيم ··

٢١

الطريق من « كانو » و « سوكوتا » الى مدينة « اينوغو » عاصمة « بيافرا » الانفصالية ، طريــق وعر طويل شـــاق ، على جانبيه اريقت دماء كثيرة ، وسقط عــدد من الشهــداء واصبحت الغابات مسرحا للانفجارات العنيفة ، وطلقات الرصاص المستمرة ، وكانت الطائرات تحلق فى الأجواء حاملة الموت والدمار والدماء ، وتنفث الدخان الأسود ، وصمتت الأغنيــات الشعبية الجميلة ، أغنيات الحب والنماء والامل والزهور والحصاد ، ودقت فى الأنحاء المارشات العسكرية المخيفة ، وطبول الحرب يعلو عويلها المتحشرج المزعج ، وعمالقة الشمال يتدفقون صوب الهدف ...

كنت قلقا طوال المعارك الدامية ، والحرب يا أصدقائي كالعمياء البكماء ، لا تميز بين صالح وطالح ، ومجرم وبريء ، ووثني ومؤمن كلهم بشر يتألمون ويخافون ، ويحزنون ويتشاءمون ، وعزائي الوحيد أن كل شيء بقضاء وقدر ، وأنه لا بد من بعض الألــم كــى تنعم بالراحة ، والشقاء قد امتزج بالنعيم فى دنيانا الفانية ، ولا حيلة فى الأمر ما دام هناك أناس يطمعون ، ويستسلمون للاثم والجشع ، وأناس يهمهم أن يسود الحب ، ويرتبط الاخوة فى الوطن بكيان واحد ، يحفظهم من الشرود ، ويحميهم من العدو ، ويمكن لهم من

ثرواتهم وحريتهم ··· ذلك قضاء الله ولا راد لقضائه ·

وهناك قرية على تبة عالية ، كان لرجال « أوجوكو » موقع حصين عليها ، ولا يمكن ان انسى الأيام المريرة التى عانينا فيها ونحن نحاول احتلال هذا الموقع ، لأن مدافعهم كانت تتحكم فى تحركاتنا ، وكلما قمنا بهجوم ، انهالت علينا نيرانهم القوية فخسرنا عددا كبيرا من الشهداء ، وكانت لدى الجيش عندنا بعض الطائرات التى قرر قائد الكتيبة الاستعانة بها لذلك الموقع، والمشكلة العويصة ان المدافع المضادة للطائرات كانت تشكل خطرا آخر ،وعلمنا بطرقنا الخاصة ان بعض الخبراء الاسرائيليين ، والذين كانوا قبل ذلك ضباطا فى الجيش الامريكى يوجهون العدو ، ويمدونه بالمشورة ، ويساعدونه فى التخطيط والرمى ، كان لا بد ان نحتل هذا الموقع الذى يتحكم فى عدة الطرق ، حتى لا يتعطل الزحف ، والحقيقة ان رجالنا كانوا يتقدمون دون خوف ، لكن العدو يدافع فى استماتة بالغة ، وكنت أضرع الى الله فى صلواتى ودعواتى أن يجعل لنا السيطرة على هذا الموقع حتى لا نفقد مزيدا من الضحايا ، اننى اتألم من فقدان أي انسان فى هذه الحرب الأهلية ، التى اندلعت بين الأخ وأخيه ، ولذا تمنيت من صميم قلبى ان يضع الله لهذه الحرب النهاية العادلة فى أقرب وقت ، يا الهى ··· ان المزروعات قد تلفت تماما ، والحيوانات هى الاخرى قد اصيبت بالفزع ، فهى تجرى فى هلع ، وتعوى عواء المضطرب الخائف ،اضطرب الأمن وشقت الحياة على كل الكائنات ··· واستطعنا بالحصار الشديد ، والضرب المستمر أن نعزل المنطقة ، ولا نسمح لأية نجدات بأن تنفذ اليها من أية ثغرة ، وأخيرا بعد عناء طويل ، استطعنا أن نستولى على الموقع ، كنا نتقدم ، ولا

نقف او نتراجع برغم كثرة الذين يسقطون ، وعندما تم لنا النصر ، وقف قائدنا وقال وعيناه تبرقان فى تشف :

ـ « سوف أجعل من هؤلاء الخونة عبرة ٠٠ سأقيم مذبحة أكبر من مذبحة « أونيتشا » التى أقاموها لاخوتنا من « الهوسا »٠٠

وجريت صوب القائد وهتفت :

ـ « أيها الأخ الأكبر ٠٠٠ انهم أسرى »

ـ « هم عصابة مجرمين ٠٠ »

قلت وعيناى مخضلتان بالدموع :

ـ « القتل لا يصلح شيئا ، ودماء الحقد صعب أن يجف ٠٠»

نظر الى فى غيظ وسخرية وقال :

ـ « أنت لا تعرف الحرب ٠٠٠ لو لقناهم درسا ، فسوف تستسلم كل المواقع التالية دون مقاومة ٠٠٠ الرعب يفتح الطريق أمامنا ٠٠ »

صرخت فى حدة :

ـ « بل الحب والصفح هما اللذان يفتحان الطريق ٠٠ »

صاح القائد :

ـ « خذوه بعيدا ٠٠ »

وأمسك بى عدد من الاخوة ، وسحبوني الى مكان آخر ، كنت أصيح وأتوسل اليه الا يريق دما ، أو يقتل أسيرا ، نحن نريدهم أحياء لنضع من حقدهم صورة جديدة للتفاهم والاخاء ، نريد أن نسلمهم كلمات الله لعلهم يؤمنون ، وعندما يستقر الايمان فى قلب مجموعة من البشر ، فسيتحولون الى اخوة حقيقيين لنا ، وعندما أطبقنا عليهم ، كان المحاربون يرفعون أيديهم فى استسلام تام ، عيونهم تعبر عن التعاسة ، وأجسادهم النحيلة يرتسم عليها الشقاء

والجوع والسهر المضنى ، وأمسك قائدنا بمدفعه وصاح :

ـ « أيها الحمقى ··· ان قادتكم ·· »

وجاءنا صوت رجل جريح :

ـ « لقد هربوا يا سيدى ·· »

كز على أسنانه غضبا ، ووقف صامتا لحظات ، فتقدمت اليه وأمسكت بيده في هدوء وقلت :

ـ« دعنا نجرب ·· هؤلاء الرجال لو صفحنا عنهم ، فسيكونون عونا لنا لا علينا ·· تذكر انهم اخوة ·· وأننا نسير فى ضوء شريعة الله ·· »

تفصد جبينه عرقا ، ونظر الى طويلا ، ثم مضى الى سيارته··

الحمد لله ·· وجلست وسط الجنود المنهزمين يومين اشرح لهم القضية ، وأوضح لهم الأمر ، وأفسر لهم معنى الايمان ، وصاح أحدهـــم :

ـ « لقد خدعونــــا ·· »

الحقيقة ان الصفح عنهم ، بعد هذا الصراع الدامي ، كان أفعل من أي وعظ ، وأبلغ من أي كلام ، وفى خلال يومين ، كانوا قد استجابوا لكلماتي وآمن عدد غير قليل منهم ، وأجمعوا أمرهم على أن ينضموا الى صفوفنا من أجل وحدة نيجيريا الأم ، وكان قائدنا سعيدا جدا لهذا التوفيق العظيم ، لانهم سهلوا لنا كثيرا من الأمور العسكرية أثناء زحفنا ، وكان لتوجيهاتهم وصراحتهم أثر كبير في انتصاراتنا فيما بعد ، بل ان القائد أنعم على بنيشان وترقية عسكرية تقديرا لما أسديته لقواتنا المحاربــة من خدمـات جليلة كما جاء في كلمته ـ أثناء الاحتفال الصغير المتواضع الذى أقامه من أجل شخصي الضعيف·· أما سكان القرية المجاورة للموقع

فقد ظلوا قابعين في أكواخهم وبيوتهم لا يغادرونها ، وعلمنا أنهم لم يكونوا يقدمون للمحاربين ما يحتاجون اليه من طعام وشراب الا عنوة ، بل أن الأعداء قتلوا عددا من أهل القرية ، وخاصة المسلمين منهم الذين رفضوا التعاون معهم ، ولم يكن ذنب المحاربين بل ذنب قادتهم الذين يتلقون توجيها من الخبراء اليهود والضباط التبشيريين وعملاء الاستعمار ...

ودخلنا القرية وأمامنا مكبرات الصوت تعلن لهم العفو ، وتعدهم بحسن المعاملة ، وتدعوهم للخروج الى العمل ، ومزاولة حياتهم دون خوف ، وخرجت القرية عن بكرة أبيها ترحب بنا ، وانعقدت حلقات الرقص الوطني ، واختلطت الأغنيات الشعبية ، وأخذ عدد كبير من الشباب يهتف بسقوط « أوجوكو » والخونة ، ولقد حاول بعض الجهلة من جنودنا ان يمازحوا الشابات ، فجن جنوني ، وأسرعت باخبار القائد ، الذى أصدر أوامره بالكف عن هذا العبث ، وقلت فيما قلت لقائدنا :

ــ « سيدى القائد ، اننا ننتصر عليهم بطاعتنا لله ، ومعصيتهم لـــه .. فلو تساوينا فى المعصية معهم ، لانتصروا علينا .. »

فابتسم القائد ، ثم ضحك ، وأخذ جسده يترنح من شدة الضحك وأخذ يقول :

ــ « الحرب تسقط بعض القيم يا عثمان .. »

ــ « لكن المسلم أيها الأخ الأكبر لا يفارق قيمه ســواء فى السلم أو الحرب .. »

ــ « صدقت .. أنت رجل صالح .. »

وصمت برهة ثم قــال :

ــ « أعرف أن الحرب قد تغير كثيرا من ظروف الفرد وسلوكه

وبعض الجنود قد يصابون بالجنون .. ليس سهلا أن يسقط القتلى ، وتسيل الدماء ، وتنطفىء شمعة الحياة ... ومع ذلك فقد أصدرت أوامرى .. »

وأبديت له تقديري وشكري ، وقلت وأنا أتطلع الى الشمس الحارقة التي تسكب النور الساخن على القمم والغابات :

ـ « ما جئنا لنكسب معركة حربية ، بل لندعم أواصر الحب ، ونجمع الاخوة في الشرق على قلب رجل واحد .. جئنا لنكسب قلب الانسان ، قبل أن نكسب الأرض والمواقع ..... »

ومضينا فى طريق المعارك المضنية العنيفة ، كانت الحرب هي جل حياتنا ، نمسي ونصبح ، ونحن نعد لمعركة ، أو نمشط منطقة من جيوب المقاومة ، أو ندفن موتـى ، أو نضمد جرحـى ، وكنت أتألم ، ان الانسان الذى يموت يجب أن تهتز له قلوبنا ، موت انسان شيء كبير للغاية ، فبموته تموت امنياته ، واحلامه وغده ، ولا يعود مرة ثانية الى أهله ومحبيه ، أله أبناء ينتظرون ؟؟ أله أم وأب يقفون كل صباح وكل لحظة غروب ينظرون الى الأفق البعيد لعله يأتي اليهم ؟؟ لكن لا مفر من الموت ، والحرب فرضا ، وليس أمامنا الا الدفاع عن أنفسنا ووحدتنا وأمن شعبنا ..

وأنا أكره الكذب أشد الكره ، كثيرا ما كنت أفكر فى «جاماكا» أعنى « سعيدة » ، كنت أخاف أن تصيبها رصاصة طائشة ، وما أكثر الرصاصات الطائشة فى الحروب ... كان لها في قلبي منزلة خاصة ، وكانت بريئة مضطهدة ، ولذا تمنيت أن تعيش وأن تنعم بباقي حياتها .. انها بالنسبة لي تعنى الأمل فى المستقبل الطيب ، تعني امكانية التقاء بين الهوسا والايبو واليوروبا وغيرهم من ابناء نيجيريا الالم .. كانت رمزا حيا نابضا ولم تكن مجرد حبيبة ...

ويوم أن وقفنا على مشارف المنطقة التى تعيش فيها ، كان قلبى يدق .. متى تبدأ المعركة ؟؟ وأين سنصب نيراننا ، وذهبت الى القائد وقلت :

ـ « لا يصح أن تطلق رصاصة واحدة قبل ان نتأكد من ان العدو هنا سيقاوم .. »

وابتسم القائد في هدوء وقال :

ـ « أخبرني عبد الرحيم عن كل شيء .. »

وأخذ يقهقه ثم استطرد :

ـ « لن ندع هذه الأمور الشخصية تتحكم فى مصير المعركة.. وفى مصير الرجال الذين يسيرون معنا فى حقول الموت .. هـل فهمت ؟؟

قلت وأنا اخفض رأسى خجلا :

ـ هؤلاء الناس أنقذوا حياتنا .. وفيهم من يحبنا ويؤمن بـالله .. »

رد فى جفاف :

ـ « سنرى .. »

ـ « اذن فلتتركنى أذهب لمفاوضتهم .. »

ـ « فليأتوا هم .. »

ـ « لسنا يا سيدي القائد فى مجال الكبرياء .. »

ـ « ليست كبرياء ، ولكنها الأصول العسكرية .. لو كانت زوجتي وأولادي يعيشون فى هذه القرية ، ورأيت من المصلحة أن أدمر القرية ، لدمرتها فى الحال .. »

اقشعر بدني ، تصورت البيوت المهدمة والصراخ والبكاء والآدميين الذين يسحقون تحت الانقاض فى نبرات واهنة :

ـ « ديننا يوصينا بالرحمة »
لا تخلط بين الرحمة والتخاذل ‥ »
ونظر القائد الى بعيد وأنا افكر في هذا الموقف الصعب ، وأفقت من شرودى على صوت قائدنا يقول :
ـ « ها قد اتوا ‥ »
يا الهي ماذا أرى ؟؟ مجموعة من سكان القرية ، وعلى رأسهم زعيمها والى جواره « جاماكا » يحملون الرايات البيضاء وباقات الزهور ، واعطيت التعليمات للجنود بالاستعداد الكامل ، واعداد العدة لأي طارىء ، ودخل الزعيم ومن معه بين صفين من الجنود ، وما ان رآتني « جاماكا » حتى اتسعت حدقتاها دهشة ، وامتلأت عيناها بالدموع ، ثم ألقت بنفسها فجأة بين ذراعى ‥ ولم أكن أدرى ماذا أفعل ‥
قال زعيم البلدة :
ـ « جئنا نرحب بمقدم الأشقاء القادمين من الشمال ‥ ونحن أصدقاء من قديم ، وعثمان أمينو ‥ يعرفنا جيدا ‥ »
سامحنى الله ، فقد كنت أشعر بنشوة الفخر والنصر ، ليس هناك محب يحلم بأن تراه حبيبته على أروع من هذه الصورة الفريدة ‥ لكنى استغفرت الله من هذه الأنانية وهذا الغرور
وقال الزعيم :
ـ « لن تجدوا في أرضنا غير المحبة والسلام ‥ ويسعدنا أن نقدم لكم كل المعونات الممكنة باسم الوطن الأم ‥ ويسعدنا ان يشترك معنا جنودكم في بناء مسجد صغير ‥ »
ورد القائد في سعادة :
ـ « نحن نبني ولا نهدم ، ونحارب من أجل الابقاء على المعاني

العريقة بين أبناء شعبنا ، والتى أراد العدو الأكبر أن ينسفها نسفا ٠٠ »

ودخلنا القرية مطمئنين هانئين ، وبقينا فيها فترة للاستجمام وجمع المعلومات ، واعداد العدة لمواصلة الزحف نحو « اينوغو » عاصمة « بيافرا » المزعومة ٠

ها نحن معا يا « سعيدة » ٠٠ يا حبيبة القلب ، وشريكة أيام النضال ، نلتقى معا من جديد ، انزاحت القيود ، وتراخت قبضة الطغاة يا حبيبتى ، وهاهم أهلك وسكان بلدتك يحيطوننا بالأهازيج الحلوة الندية ، ويبعثرون فى طريقنا الورود والزهور ، وها هو أبوك يبتسم ابتسامته الحلوة النابعة من القلب ، وها هن نسوة القرية يصنعن لك من الأوراق الخضراء وأفرع الورود تاجا يليق بمقامك ، ويجعلون منك فتاتهم الأولى النبيلة ، التى حذرتهم من مغبة المصير ، ووجهتهم الى الطريق السليم ، وشرحت لهم أسباب الفتنة ٠٠ ها نحن نلتقى يا حبيبتى ، ووراءنا طريق طويل من الأشواك والدماء ، وأمامنا طريق آخر طويل لنبلغ الغاية ٠٠ طريق لا شك تحفه المكاره الحربية ، والصراعات الفكرية ، والافاعى الماكرة ٠٠ لكننا بعون الله سننتصر ٠٠ قلب المؤمن يا حبيبتى تعنو له الجبال ، وتطأطىء له القمم ، وينطلق فى ظل الله لا يخاف وعدا أو وعيدا ٠٠٠

أي سعيدة ٠٠٠ لا بد أن أسافر ٠٠ وأكمل الرحلة المقدسة حتى « اينوغو » ٠٠ كى نطهر الأرض من الرجس ٠٠ وسأعود اليك يا حبيبتى مع الفجر الندى الساحر ، المرطب بالحب والأحلام والذكريات الشجية ٠٠

وذهلت اذ سمعت سعيدة تقول :

ـ « لن تسافر وحدك »
ـ « كيف ؟؟ »

ـ « سآتي معك ، أضمد الجرحى ، وأشارك معكم فى معركة الوحدة والتوحيد ٠٠ وستأتى معى فتيات كثيرات ٠٠

لن نكون عبئا عليكم ٠٠ لقد نظمت كل شيء ٠٠ »

قلت فى حيرة :

ـ « لا بد من موافقة القائد ٠٠ »

ضحكت ضحكتها الحلوة الآسرة وقالت :

ـ « لقد وافق ، واشترط على شرطا »

ـ « ما هو ؟؟ »

قالت وهى تحرك سبابتها فى تحذير لطيف محبب :ـ

ـ « الزواج بعد انتهاء الحرب ٠٠ »

قلت وقلبي يدق :

ـ « هذا اذ لم تطحننا الحرب باحجارها التى لا ترحم ٠٠ »ـ

ابتسمت فى انتعاش وقالت :

ـ « الله معنا ٠ »

٢٢

ـ « اينوغو » يا ابنة العم الجاحدة ·· لا تضحكوا منى ··
لان العاصمة « اينوغو » التى تمردت وأعلنت الانفصال ، هى فى
نظرى كابنة العم التى خانت تقاليد الأسرة الواحدة ، وسقطت فى
حبال الخديعة ، وباعت نفسها للشيطان ·· ها هي القوات الاتحادية
النيجيرية تحاصرك يا « اينوغو » ، وعمالقة الشمال ـ أبناء العم ـ
يدقون أبوابك ، من كل صوب ·· الشيطان يضحك منك ، ويسخر
من سذاجتك يا من استجبت لتحريضه ، وأرقت الدماء ، وتسببت
فى آلاف الضحايا ·· افتحي ذراعيك أيتها الحمقاء المتمردة ·· فان
أبناء العم ، لن يسفحوا دمك باسم الشرف والفضيلة ، افتحي
ذراعيك وعودى الى السواعد الفتية ، والأحضان السمراء الدافئة ،
التى تنبض بالحب والأمل ، وتؤمن بالصفح والغفران وجمع الشمل
···· لا تتلفتي وراءك يا « اينوغو » فقد هرب الشيطان وتركك
وحدك تعانين مرارة الندم ، وقسوة تأنيب الضمير ·· عودى يا أبنة
العم الشاردة ··· فقد بطل السحر ، وسقط كل ادعاء وزيف ··
كونى شجاعة واعترفي بالخطأ ، كى تبدئى حياة جديدة نظيفة ،
فقد هرب « أوجوكو » الذى أثار النعرات القبلية ، وخدعك بمعول
الكلام ، وضحك عليك بالشعارات الكاذبة ·· ماتت الأوهام ،
وها أنت تواجهين الحقيقية الاليمة ·· الايبو واليوروبا والهوسا
وغيرهم ، كلهم أبناء أم واحدة هى نيجيريا ، صهرتهم الآلام والنضال
والذكريات والانتصارات فى بوتقة واحدة ·· ولم تعد بلادنا ساحلا
للعبيد ·· هى الآن أرض الأحرار ·· لا تفزعي يا « اينوغو » فان ما

حدث كان مجرد نوبة من نوبات الصرع او الهستيريا ، والمرضى قد يفعلون اشياء بدون ارادتهم ، وما كان الحقد طريقا للشفاء ، ولا كان الانفصال او الانعزال وسيلة للقوة والمنعة » .

بهذه الكلمات كنت أناجي نفسي ، وأحدث كل من ألقى في شوارع « اينوغو » عاصمة جمهورية « بيافرا » المزعومة ، كنت أهمس فى حنان والدموع تغرق خدي ، وأنا أرى جموع المحاربين التعساء يلقون السلاح في استسلام ، وقد هدهم الصراع ، وأرهقهم طول السهر والعناء ، كانت نظراتهم مشحونة بالألم ، يبللها الندم والأسف ، وكان رجالنا المنتصرون يمضون فى هدوء ويسيطرون على المواقع دون تشفي ، وعاد الأمن والهدوء بعد صراع طويل دام .. والغريب أنني كنت أسمع وكالات الانباء العالمية فى الاذاعات ، وأقرأ تعليقاتها فى الصحف ، وهى تتكلم وتكتب عن الضحايا واللاجئين والجائعين والمضطهدين فى الاقليم الشرقى فى نيجيريا .. هؤلاء الحمقى يكذبون .. والأغرب من ذلك انه قامت دعوة « انسانية » ـ هكذا زعموا ـ لجمع التبرعات ، وارسال المعونات الغذائية والدوائية لتعساء الايبو .. يا الهى .. انهم يكذبون .. ولكني سعدت اذ سمعت « يعقوب جوون » قائد نيجيريا الاتحادية يعلن على الملأ أنه يرفض تلك المعونات ، لأن نيجيريا المتحدة ليست فى حاجة اليها .. وان الذين يتحدثون عن المآسى الموهومة ما هم الا حفنة من الاستعماريين والاسرائيليين ومؤسسات التبشير المتعصبة وان كل ما يروجون لا أساس له من الصحة ..

آه ... الذين رقصوا بالأمس ابتهاجا بموت أحمدو بيللو ، وطربوا لدماء الشرفاء أثناء تمرد « شوكوما » وحكم « ايرونسى » وحمامات الدم التى اقامها « أوجوكو » .. الذين رقصوا بالأمس أراهم يبكون غيظا أم ندما أم خوفا من هول المصير ؟؟

لقد عاد الصفاء والهدوء والسلام برغم كل ما حدث ، وخرج أبناء نيجيريا فى الشمال والجنوب ·· فى الشرق والغرب يغنون ويرقصون ويمرحون ·· ينشدون للسلام والوحدة والحرية أناشيد شجية تأخذ بمجامع القلوب ، وتبهر الآذان والعيون !!

ـ « أين أنت يا عبد الرحيم ؟؟ »

وأخذت أتجول فى انحاء « اينوغو » ·· الناس يأكلون فى سعادة ، وكأنما انجاب عنهم هم ثقيل ، وانزاحت عن كواهلهم أحزان طال بقاؤها ، وأجراس الكنائس تدق ، والمآذن ينطلق منها الصوت الحبيب « الله أكبر ·· الله أكبر ·· » ووجدت عبد الرحيم خارجا من أحد المساجد الصغيرة ، وغمغم :

ـ « هل انتهينا ؟؟ »

قلت وأنا أنظر صوب السماء الصافية التى يغمرها الضياء بعد الظهر :

ـ « تلك هى البداية »

ـ « اذا كانت هذه هى البداية يا عثمان أمينو ، فكيف تكون المسيرة الحقيقية اذن ؟؟ »

ـ « ما أكثر ما يحتشد فى الطريق من عقبات ·· لك ان تسألني ما هو النصر الذى أريد ؟؟

أجل ·· ان تضيء شعلة الايمان قلب الأم الكبير ··· ان تهتف نيجيريا لله وحده ·· هذا هو السلام الحقيقى ·· والنصر الكامل الذى علمنيه محمد صلى الله عليه وسلم ·· الايمان ·الحرية والخلاص والسعادة ··

حيث لا يستعبد بشر بشرا ، وحيث تتحطم الاصنام الآدمية وحيث يصبح الناس اخوة بمعنى الكلمة »

ومضينا فى شتى الطرقات نبحث عن « سعيدة » · ·

انها غارقة وسط الجرحى والدمـاء والآهـات الملتاعة ٠٠ـ
هتفت : « سعيدة »
نظرت الى فى عجل وقالت :
ـ « لا وقت لدي الآن ٠٠ »
ـ « لكني أريدك لأمر هام يا سعيدة »
ـ « حياة هؤلاء أهم من أى شيء آخر ٠٠ »
شعرت بشيء من الخجل ، لكنها عاجلتني قائلة :
ـ « أحمل هذا الرجل معى الى ذلك المكان ٠٠ انه يحتاج الى عملية بتر الآن ٠٠ »
كانت تتكلم وتشير الى غرفة تبعد عنا حوالي عشرين مترا ، ووجدتنى أنهمك معها فى العمل لبضع ساعات دون أن أشعر بمرور الوقت ٠٠ المأساة هنا ٠٠ النظر ـ مجرد النظر ـ الى وجوه هؤلاء التعساء يجسم مأساة الحرب ، ويجعل منها شيئا بشعا مروعا ، والاستغاثات الضارعة تزرع فى قلبي حزنا أبديا ، والايدى الشاحبة النحيلة الراعشة ، وهي تمتد الي في توسل تفجر من عيني الدموع، ذلك مشهد لن ينمحي من ذاكرتي طول حياتي ٠٠٠
وقبيل منتصف الليل ، نظرت الى سعيدة بعينين يخالطهما النعاس ، وتثاؤباتها تتوالى ، وهمست فى دهشة :
ـ « ماذا تريد ؟؟ »
ـ « ألا تعرفين ؟؟ »
ـ « كل ما أعرفه أن لدي عملا هنا يستغرق حوالى الشهر٠٠»
ـ « وبعدها ؟؟ »
نظرت الى وجهها يشرق بالسعادة :
ـ « وبعدها يا عثمان انطلق في أي اتجاه ٠٠ وستجدني وراءك ٠٠ حتى آخر الدنيا ٠٠ »

واغمضت عينيها وهي تتكىء على منضدة خشبية معفرة ، وقالت وهي في شبه حلم :

ـ « سيكسون كل شيء على ما يرام •• سيغني لنا عبد الرحيم أغنيته الحلوة •• وسنقيم أفراحا تستمر أسبوعا فى قريتنا الحبيبة •• لقد وعدني الزعيم ، كما وعدني أبي بأنهما سيباركان زواجنا •• عثمان •• أيها الحبيب الغالي •••

سيكون ـ أبناؤنا أسعد حالا منا ••• وسندعو الى الله في كل بقعة تطؤها أقدامنا ••

«سعيدة وعثمان»رمز نيجيريا الواحدة •• وسيدعو لنا الشيخ عبد الله بالبركة والسعادة •• هذا رجل صالح •• »

وصمتت عن الكلام ، وانبعثت أنفاسها هادئة رتيبة •• فتناولت ملاءة بيضاء نظيفة ، وأسبلتها عليها •• وجلست الى جوارها وهي نائمة أنظر الى وجهها الملائكي ••• وبقيت متيقظا حتى الصباح •••

نحن الدعاة الى الله ••

طريقنا الحب الطاهر بكل ألوانه الباهرة ••

غذاؤنا الأمل ••

وطريقنا يمتد الى بعيد •• لا يقطعه الموت ، أو تطمسه العواصف ••

فالركب السائر الى الله في صدق لا يضل الطريق •••

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 19 / رجب / 1444 هـ
في 10 / 02 / 2023 م

سرمد حاتم شكر السامرائي

روايات اسلامية معاصرة

عمالقة الشمال

نجيب الكيلاني

م. سرمد حاتم شكر

دار النفائس

● تعتبر هذه السلسلة من الروايات الحديثة أول عمل فني يعالج قضايا العالم الاسلامي ومشاكله المعاصرة.

● وهذه الروايات تستمد أحداثها من وقائع مثيرة ثابتة تاريخياً، صيغت بأسلوب قصصي شائق، يتميز بدقة التصوير، وقوة الحوار وتماسك الحدث.

● ورواية «عمالقة الشمال» التي تجري أحداثها على أرض نيجيريا في فترة عصيبة من فترات تاريخها المعاصر، تعتبر رواية فذة بما استطاعت أن تكشف عنه من خفايا وأسرار في حبكة قصصية بارعة.

